ابن زيـــدون

شـاعـر الحب المعذَّب

بقلم : د. فوزي خضر

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

مشاهير الشعراء العرب للشباب والناشئين

مشاهير الشعراء العرب
سلسلة تصدرها
الدار المصرية اللبنـانية
المـديـر العـام : **محمد رشـاد**
رئيس التحـريـر : **أحمد سويلم**
الإعداد والصياغة : **محمد فتحي**

---

16 ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : 3923525 - 3936743
فاكس : 3909618 ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : 2022 ـ القاهرة
e - mail ALMASRIAHRASHAD@LINK.NET

رقم الإيداع : 9070 / 2002
الترقيم الدولي : 0 - 733 - 270 - 977

الطبعة الأولى : صفر 1423 هـ ـ مايو 2002م

ابن زيدون




بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الموضوع	الصفحة

* * *

الشعر ديوان العرب . . وسجل حياتهم . .
والشعراء هم أصحاب الرأى والتعبير على مرِّ العصور . .

ومن مظاهر تقدير العرب للشعراء أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن المزاهر - كما يصنعون فى الأفراح - لأن الشاعر كان لسان القبيلة ، وهو الذى يمثل الحماية لأعراض الناس ، وهو المدافع عن أحسابهم ، والمُفاخِر بمآثرهم . . والمُمجِّدُ لذكرهم .

وكان العرب لا يهنئون إلا بغلامٍ يُولَد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج . . !

وقد أجمع دارسو الأدب العربى على أن الشعر يمثل جوهر الثقافة العربية ، حتى أن أية دراسة عن الشعر العربى يمكن أن تكون دراسة عن الثقافة العربية والوجدان العربى معًا .

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسّموا عصور الأدب العربى إلى مراحل متتالية . . وربما اعتمد هذا التقسيم على النظرة السياسية . . أو التغيُّر السياسى داخل المجتمع ، مما يؤثر ويتفاعل مع تطور الشعر وأساليب تعبيره . .

- فالعصر الجاهلى مثلاً يبدأ قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وينتهى بظهور الدعوة الإسلامية . .

ـ ويبدأ العصر الإسلامى منذ ظهور الدعوة . . وينتهى بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين . . وظهور الدولة الأموية سنة ٤١ هـ .

ـ ويبدأ العصر الأُموى منذ ولاية معاوية بن أبى سفيان سنة ٤١ هـ حتى قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

ـ أما العصر العباسى الأول فيبدأ بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى قيام دولة بنى بويه عام ٢٣٤ هـ .

ـ ويبدأ العصر العباسى الثانى منذ قيام دولة بنى بويه حتى هجوم المغول على بغدادسنة ٦٥٦ هـ وانقسام الدولة العربية الكبرى إلى دول صغرى وإمارات شرقاً وغرباً .

ـ ثم يبدأ عصر النهضة الحديثة منذ قيام دولة محمد على حتى وقتنا الراهن . .

وهو تقسيم لا نظن أنه يخضع لحدود قاطعة فاصلة لكل عصر تبدأ وتنتهى بقيام دولة وسقوط أخرى . . ولا نظن أيضاً أن الأدب يمكن أن يغير جلده هكذا بين يوم وليلة ـ كما تتغير الظروف السياسية ـ وإنما يعنى هذا التقسيم أن ملامح الأدب فى عصر ما تستكمل مقوماتها فى ظل ظروف سياسية واجتماعية معينة ، وتخفت بعض من ملامح أو يضاف إليه ملامح أخرى فى عصر تالٍ . . وهكذا !!

ولابد أن الشعراء الذين أخلصوا لفنهم كانت لهم مواقفهم المتباينة فى ظلال هذه العصور المتتالية ، فلم يكن ذكرهم خافتاً ، ولا لونهم باهتاً ، ولا صوتهم ضائعاً فى زحام التحولات السياسية المختلفة ، ومن ثَمَّ تنوع ولاؤهم ، وتميزت أساليبهم ، وتعددت مذاقاتهم ورُؤَاهُم وتجاربهم ، فتجاوزوا سَمْتَ العصر ، واخترقوا حاجزَ الزمن ، ليصلوا إلينا شامخين قادرين معبرين عن جوهر الإحساس الإنسانى ، على حين أسدل الزمن على مَنْ لم

يمتلك هذه القدرة عباءته السوداء ، وطواهم فى جُبِّ النسيان ، لأنهم لم يفلحوا فى التعبير عن عصرهم ، ولا استطاعوا أن يصلوا إلينا كما وصل غيرهم .

ولا شك أن القارىء المعاصر ـ فى زحام الحياة الضاغطة المهمومة ـ فى حاجة ملحَّة إلى الاقتراب من عالم الشعر ـ قديمه ومعاصره ـ فى أبرز نماذجه وأفضل شعرائه ، وتنوع مذاقاته ، واختلاف بيئاته ، لكى يقف على عظمة هذا الفن العربى الذى تقدَّمَ كُلَّ شىء ، وأحرز السبق على غيره من الفنون العربية .

ونعتقد أن هذه العظمة هى جزء من عظمة التاريخ العربى والحضارة العربية . . وهى أيضاً بطاقة عبور صادقة إلى كل ما هو ساطع وناصع فى السماء العربية ، تتحدى الغيم ، وعَصْفَ الريح ، واعتداء الساخطين على مقدرات هذه الأمة العريقة .

ولأن الشاعر شاهد على عصره ،فقد أولينا هذا المعنى اهتماماتنا واختياراتنا ، فوقفنا فى باب كل عصر نطرقه ، ونستخلص منه كنوزه الشعرية التى تمثله خير تمثيل .

وآثرنا فى خطتنا أكثر من عنصر يكمل دائرة الفائدة . . أهمها :

أولاً : أنها سلسلة موجهة للشباب والناشئين . . لهذا فإنها تتخذ منهجاً مختلفاً يبتعد ـ بقدر الإمكان ـ عن المناهج الأكاديمية التى قد يعافها ذوق أولادنا .

ويلتزم هذا المنهج تقديم الشاعر من خلال سيرة حياته بأسلوب مبسط يجمع بين الدراما والسَّرد والنص الشعرى . . يهدف إلى كسر الملل والرتابة . . وتقريب القارىء الشاب إلى عالم الشاعر الإنسانى والفنى معاً . . بحيث يخرج القارىء من الكتاب بمعرفة غير محدودة

بالشاعر وعصره وتجربته الشعرية وأثرها فى مسيرة الشعر العربى . . وكيف نقل الشاعر بحسّه وقدرته مشاعره وأفكاره إلى عصره ومجتمعه بل إلى عصرنا الراهن فى إيجابية وعطاء ممتد متجدد .

ثانياً : أن يكتب عن هؤلاء الشعراء أساتذة وأدباء وشعراء ممتازون ، على درجة عالية من الرغبة الداخلية فى هذه المشاركة ، والإيمان العميق بجدوى هذه الرسالة ، والقدرة على العرض والتبسيط والالتزام بخطة السلسلة .

ثالثاً : أن تبدأ هذه السلسلة بالشعراء المعاصرين ، باعتبار أن القارىء المعاصر قريب إلى حسّ هؤلاء الشعراء وتجاربهم ولغتهم وخيالهم . . ثم نعود القهقرى إلى العصور السابقة ، وقد تسلح القارىء بذخيرة من الفهم والتذوق تجعله يقتحم تلك العصور فى شغف وإقبال .

رابعاً : ألاّ تقتصر هذه السلسلة على تقديم شعراء بعينهم فى بيئة بعينها ، وإنما هى تنظر إلى خريطة الشعر العربى من المحيط إلى الخليج فى وحدة فنية مترابطة ، تحقق للقارىء المعاصر هذا الحسّ العربى الممتاز الذى لا يدانيه حسّ آخر فى أى منطقة من العالم .

. . . .

ولابد أن المهمة على هذا النحو صعبة ودقيقة . . !

لكننا على يقين أن الإخلاص والإيمان بجدوى ما نُقبل عليه كفيلان بتذليل كل الصعاب ، وتيسير كل الدروب العسيرة ، وتقدير كل قاصٍ وبعيد .

ولا نملك فى نهاية هذه العجالة إلا أن نشكر من كل قلوبنا كل من أسهم فى إذكاء نار الحماس لإصدار هذه السلسة الجميلة من الأساتذة والأدباء والشعراء المشاركين .

كما لا نستطيع أن نغفل ترحيب الصديق الناشر محمد رشاد . . حينما تقدمنا إليه بهذه الفكرة ، وكيف أصر على إخراجها بهذا المنهج الخاص ، الذى نتمنى أن يكون مختلفاً عن أى منهج سابق .

أما الصديق العالم اللغوى المدقق الأستاذ محمد فتحى أبو بكر . . فله من القلب كل الدعاء وكل الشكر على ما يبذله من جهد خَلَّاق متفانٍ وراء كل كلمة ، وكل جملة ، وكل إضافة جيدة .

ولك أيها القارىء الشاب . . هذا العمل الذى يمثل عصارة قلوب الذين شاركونا بالحب والعطاء . !

والله الموفق ،

أحمد سويلم

على الطرف الآخر من عالمنا الإسلامى، وبجانب الحدود المتاخمة لأوربا، ازدهـرت الأندلس بحضـارتها ، وتألقت بأدبـائها وشعـرائها ومفكـريها . . وحينما تخلى العرب عن مـواقعهم هناك ، تـركوا آثارًا ومـؤلفاتٍ وفكـرًا امتزج بطبيعة وجمال الأنـدلس ، وتميز عن عطاء الشرق ، وأضـاف الكثير إلى وجه الحضارة العربية .

لقد تميزت الأندلس بحب الأدب والشعـر ، وَجَدَّد شعراؤها فى القصيدة العربيـة بما عُرِفَ بـالموشحات ، التى تُعَـدُّ ثورة حقيقيـة على نمط العَرُوض الشعرى الذى عُرف به الشعر العربى .

وكان شعراء الأندلس وأدباؤها يشغلون المناصب الرفيعة ، ويشاركون فى صنع قـرارات السلطـة ، وقـد ضربـوا المثل الكـريم فى الجمع بين الحس والعقل، والفن والعلم .

ومن هذه الكوكبة النابغة شاعرنا ابن زيدون ، الذى احتل قمة الشعر فى زمـانه ، وطـارت أخباره إلى الشرق مع وَلَّادَة بنت المستكفى ليقف على قـدم المساواة مع شعراء الحب العربى الذين عُرفوا فى عصور الشرق الأدبية .

وهذا الكتـاب يطوف بحيـاة وفكر وإحسـاس هذا الشـاعر الكبير « ابن زيـدون »، وهى حيـاة شـديـدة المعـانـاة ، تتميـز بـالمدِّ والجَزْر ، والفـوز

والإحباط، والجنون والعقل ، ومن ثَمَّ تميـزت عن حياة كثيرٍ من شعراء عصره بأنها أحـدثتْ آثارًا قـوية فى وجـدان الأندلس على المستـويين : الوجـدانى والسياسى .

د. فوزى خضـر

دخل « ابن زيدون » بخطاه الواثقة إلى بستان الإبداع ، فحلّقت حواليه الأطيار ، ونظرت إليه الأزهار ، وانطلقت الجداول الرقراقة تجرى بجواره ، ومدت الشمس الذهبية أشعتها تتخلل أوراق الأشجار ، حينذاك أشرقت فى روحه نبضات الحياة بكلمات دافئة ، فعزف على أوتار قيثارة الشعر أعذب الألحان ، ونظر إلى الأزهار فرآها تتمايل مع نغمات قصائده الشجية ، وأنصت إلى الأطيار ، فسمعها تتناقل كلماته الرائعة ، وتهامست الجداول تتسامر بسحر قوافيه ، وانتشر شعره فى مشارق الأرض ومغاربها .

كان فَـتًى أدرك أن العلم هو سُلَّم الرفعة ، وأدرك أن الاجتهاد هو سبيل النجاح ، فارتفع عبر درجات العلم ، وسار فى طريق الاجتهاد .

كان فَـتًى طموحًا ، وعَلِمَ أن ما يتمناه لا يتحقق إلاَّ بالعمل ، فمضى يتنقل بين جبال الحياة وسهولها ، خاض زمن العناء بفؤاد قوى ، ونال شَهْد الأمان والهناء بقلب شكور ، وأبدع شعرًا كتب اسمه بحروف من نور فى سِجِلِّ التاريخ . . ذلك هو الشاعر الموهوب أبو الوليد أحمد بن زيدون الذى يقول :

أَضْحَى التَّنَائِى بَـدِيـلاً مِنْ تَـدَانِينَا

وَنَـابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَـانَـا تَجَافِينَـا

بِنْتُمْ وَبِنَّـــا . . فَمَا ابْتَلَّتْ جَــوَانِحُنَـــا

شَـــوْقًـا إِلَيْكُمْ وَلاَ جَفَّـتْ مَـآقِينَـــا

نَكَـــادُ - حِيــنَ تُنَاجِكُـــمْ ضَمَائِـرُنَـا -

يَقْضِى عَلَيْنَـا الأَسَى . . لَــوْلاَ تَـأَسِّينَـا

حَـالَتْ لِفَقْـدِكُمُــو أَيَّـامُنَـا فَغَـدَتْ

سُـودًا . . وَكَـانَتْ بِكُـمْ بِيضًـا لَيَـالِينَـا

وَقَــدْ نَكُــونُ وَمَــا يُـــخْشَى تَفَـــرُّقُنَا

فَـالْيَـوْمَ نَحْنُ وَمَـا يُـرْجَى تَـلاَقِينَـا

هكـذا كانـت قصائد ابن زيـدون ، تنطق فى كلماتها الـرِّقـة والعُذوبـة ، وتفيض فيها المشاعر الجيَّاشة ، ويتجلى فى ألفاظها الوضوح والسلاسة ، مع تصوير فنى بديع ، فتناقل الناس قصائده عبر البلدان المختلفة ، وأحبوا أن يتعرفوا على كل جديد من شعره ، وبـذلك صار واحدًا من مشاهير الشعراء فى تاريخ الأدب العربى .

هذا ، وقد ذاق ابن زيدون مـرارة الحبس ، والحرمان مِنْ أحَبِّ الناسِ إلى قلبـه ، ومع ذلك جـاهد فى خِضَمِّ الحيـاة حتى وصل إلى شـاطئ الأمـان ، فصار سفيرًا ، وصار وزيرًا ، وارتفع به علمه وأدبه إلى أعلى الدرجات .

وُلد أحمد بن عبد الله بن زيـدون فى أوائل عـام ٣٩٤هـ/ أواخر ١٠٠٣م فى « الرصافة » ، وهـى إحـدى ضـواحى قـرطبـة ببلاد الأندلـس ، بنـاهـا عبد الـرحمٰن الداخل صقـر قريش ، وجَلَبَ إليهـا الأشجار النـادرة من كل مكان، فصارت تحفة رائعة ، يُضرب بها المثل فى جمال حدائقها وبساتينها ، كانت فيهـا أشجـار غـريبـة ، مناظـرها بديعـة ، وأشكالها مختلفـة ، منهـا ما تصعد غصونها إلى أعلى ، ومنها مـا تمتد أغصانها أفقيًّا فترمى بظلالها على مساحة متسعـة . . أشجار ضخمة عاليـة ، وأشجار لا يزيد ارتفـاعها على متر واحـد بعد تمام نضجهـا . . وأوراق الأشجار مختلفـة الأشكال ، منهـا العـريض ومنها الـرفيع ، منهـا الكبير ومنها الصغير ، منهـا ما هـو داكن الاخضرار وما هو فـاتح اللون ، أمَّا الأزهار فكـانت تنتظم منها كل الألوان الموجودة فى الكون بنظام بديع .

فتح ابن زيـدون عينيه على هـذه المنـاظر الخلاَّبـة منـذ طفولتـه الأولى ، فاستمع إلى حفيف الأشجار ، وإلى تغريـد الطيور ، وإلى وَشْوَشات الماء فى الجداول الجارية ، ورَكَضَ خلف الفراشـات ذات الألوان الجميلة وهى تمرح عبر الحدائق والبساتين ، فكان لكل ما رآه فى طفولته أثر فى شعره فيما بعد .

نشأ ابن زيـدون فى أُسرة ثـريـة ، تشتهـر بـالعلم ، وذات أصل عـربى عريق، فـوَالده عبـد الله بن غالب بن زيـدون المخزومى يمتـد نسبه إلى بنى

مخـزوم ، قبيلة خالد بن الوليـد ، وكان عبـد الله ـ والد شـاعـرنا ـ من فقهاء «قرطبة» ، ومن كبار أعلام المذهب المالكـى (نسبة إلى الإمام مالك) ، وكان غزير العلم، واسع الثقافة فصيحًا ، بليغًا ، معروفًا بمكارم الأخلاق ، وهو من المستشـارين الـذين كان يلجأ لهم ذوو الشـأن فى الأمور الخطيرة ، وقـد عاش فى فترة فِتَنٍ وثورات بين العـرب والبربر والصقالبة الأوروبيين ، وأدَّت هـذه الاضطرابات إلى الإطـاحـة بكثيـر من ذوى المنـاصب العليـا ، لكن عبد الله بن زيدون سَلِمَ من تلك الأحداث لمنـزلته العلمية ، وعصبيته فى بنى مخزوم ، ومصـاهـرتـه لقبيلـة قيس عيـلان ، وكـانت لها مكـانـة عظمى بالأنـدلس ، بالإضافة إلى عـلاقاته الـوثيقة بالزعماء على اختـلاف ميولهم ، ووجـود تـلاميذه فى مـراكـز علميـة ومنـاصب مـؤثـرة فى الحياة السيـاسيـة والاجتماعية بـالدولـة . . وساعـدته لبـاقته ومـرونته على تحقيـق السلامـة له ولأسرته ، فلم تقتلعه العواصف العنيفة .

وقد استفاد الشـاعر أحمد بن زيدون كثيرًا من والده عبـد الله ، لكن هذه الفائدة لم تتعدَّ مـرحلة الطفولة وبـدايات مرحلة التعلّم ، إذ تُـوفى والده عام ٤٠٥هـ ، وشاعرنا كان فى الحادية عشرة من عمره .

وكفلته أمه ـ بعد وفاة أبيه ــ فكانت له الأم والأب معًا ، وعاشا فى رحاب جده لأمـه أبى بكر محمد بن محمد بـن إبراهيم القيسى ، الذى كان قـاضيًا وفقيهًا واسع العلم والثقـافة ، عظيم الثـراء ، وكان مشهـورًا بالحزم وحُسْن التدبيـر.

خـاض ابن زيـدون مرحلتين فى تحصيل العلم ، فقـد درس فى المرحلة الأولى كتابة الخط ، وقراءة القـرآن الكريم ، وتعلّم النحو والصرف ، ورواية

الشعر ، والحساب ، ودرس فى المرحلة الثانية تفسير القرآن الكريم ، وعلوم الـدين، وأصـول اللغة العـربيـة والشعر ، وعلـم المفردات ، والفلسفـة ، والتاريخ، والجغرافيا ، وجانبًا من الطب والفلك والرياضيات .

كان أُستاذُ ابن زيـدون الأول والدَه وكان أُستاذه الثانى جَـدّهُ لأُمّه ، فقد كان الوالـد والجد من أكابر العلماء فى قرطبة . وتتلمـذ ابن زيدون على أيدى عدد من كبار علماء عصره ، منهم مسلم بـن أحمد بن أفلح النحوى ، الذى كان متقدمًا فى علوم اللغة وروايـة الشعر والآداب ، كما تتلمذ على كوكبة من أعلام العصر ، ومن ثَمَّ استطـاع ابن زيدون تحصيل ثقافة رفيعـة بقراءاته فى مكتبة أبيه ، وفى مكتبـة جده ، وفى مكتبات قرطبة . . كما أتاحت لـه ثروته الحصول على ما يشاء من أمهات الكتب فى العلوم والفنون المختلفة فصارت له ثقافته الواسعة التى اشتهر بها .

وكان لابن زيـدون صديقان حميمان ، أحـدهما : أبو الوليـد بن جَهْوَر ، ولى عهد قرطبة ، والذى صار أميرها فيما بعد ، والثانى أبو بكر بن ذكوان ، الذى كان قاضيًا ، وكان ثلاثتهم من الشباب الذين اهتموا بالدراسة اهتمامًا كبيرًا، فـاستطـاعوا تحصيل قَـدْرٍ كبير من العلم ، جعل لكل منهم مكـانـه المرموق فى الحياة .

نظر الفتى ابن زيـدون إلى ما حولـه ومَنْ حولـه مِنَ البَشَرِ وهو يتمشى فى طرقـات قرطبة ، عاصمـة بلاد الأندلس فى عهـد الدولة الأمويـة . . هناك كـانت نظرتـه لمن حولـه مختلفة عـن نظرات كل السـائرين فى طرقـات تلك المدينة الباذخة ، كان ينظر كأنه يقرأ أحوال الناس ، فأبصر عجائبَ ، ورَأى خَلْقًا لا يعنيهم من الحيـاة غير توفير قُـوتِ يومهم ، ورأى أثـرياء لا يعنيهم غير الاستمتاع بملذات الـدنيا . . رأى خَلْقًا استكانوا ، ورأى شبابًـا متوثبًا يبحث عن فرصته فى الحياة .

دار ابن زيدون ببصره فى قـرطبة ، فشعـر أنه جمع كل مـا تشتمل عليه فى نظرة واحدة ، وأدرك طريقه الذى يجب أن يسير فيه ، لقد تعلم أن الطموح هـو طـريق الماجدين ، ولكى يتحقق الطمـوح لا بـد من عمل يساويه ولا يقلُّ عنه .

كان ابن زيـدون قد وصل إلى السنة التاسعة عشرة مـن عمره حين بدأت موجـات متتاليـة من ثورة أهل قرطبـة للتخلّص من الطغاة ، كـانت الموجة الأولى عـام ٤١٣هـ ، حين ثـاروا على القـاسم بن حمود وطردوه ، وجـاءت بعدها الموجة الثانية عام ٤١٤هـ ، إذْ ثاروا على الخليفة المستظهر بالله الأموى وفتكوا به ، ثم الموجـة الثالثة عام ٤١٦هـ حين عزلـوا الخليفة المستكفى بالله ونفـوه ، ثم جـاءت الموجة الرابعة عام ٤١٨هـ حين ثاروا على البربر (قبائل

مغربية)، حيث أسقطوا حكم العلويين وأعادوا حكم الأمويين ، ثم انفجرت الموجة الخامسة من الثورة عام ٤٢٢هـ ، حيث أسقطوا الدولة الأموية، ونفوا المعتمد بالله آخر خلفائها ، ليبدأ عصر الولايات فى الأندلس، حيث اقتطع كل أمير ولايةً استقل بحكمها ، فتحولت دولة الأندلس إلى دويلات صغيرة .

وقد أسهم ابن زيدون فى معظم هذه الأحداث، وناضل بشعره، واقفًا فى صف أبى الحزم بن جَهْوَر، معتمدًا على مُؤازرته بالشعر، ومستندًا إلى نَسَبِهِ ومكانة أسرته ، فكان شاعرنا من الزعماء البارزين الذين عملوا على إرساء القواعد لحكم بنى جَهْوَر، وكان أهل قرطبة حينئذٍ يتطلعون إلى حاكمٍ عادل .

وتظاهر أبو الحزم بن جَهْوَر بعدم رغبته فى الحكم ، مدركًا أن الحكم سوف يسعى إليه ، فلما نَادَى به أهل قرطبة حاكمًا رفض ، وحينما ألحوا عليه قَبِلَ الحكم بشرط أن يحكم حتى تستقر الأوضاع ، ثم يختار الناس مَنْ يحكمهم غيره ، وطلب تعيين مجلسٍ للشورى يكون له الحل والربط ، حتى يكون الأمر أمر الجماعة ، ورفض أبو الحزم بن جَهْوَر الانتقال من داره إلى دار الإمارة، متظاهرًا بالزهد فى الحُكم .

وهنا كان لا بد من وجود رجل لديه القدرة على نشر فضائل ابن جَهْوَر ومحاسنه بين الناس ، وعلى دعوتهم على الاستمساك به حاكمًا عليهم ، ولم يكن يصلح لهذه المهمة غير شاعرٍ سير قصائده بين الناس ، فيصل ما يبغى قوله إلى الجميع ، وكان هذا الشاعر هو ابن زيدون ، فأشَادَ بمواقف ابن جهور وأخلاقه ، وأسْهَمَ فى إشعال حماس الناس كى ينادوا به أميرًا على قرطبة، خاصة أن علاقات ابن زيدون بزعماء البلد كانت وثيقة ، فقام بدور فَعَّال بينهم ، جعلهم يؤازرون أبا الحزم بن جهور .

وتم المراد . . وصار ابن جَهْـوَرٍ أميرًا على قرطبة ، فكـافأ ابن زيدون بأن جعلـه الـوزيـرَ الأول لـه . ولم يكتفِ بـذلك ، بل كلّفـه بحل المشكـلات الطارئة ، فجعلـه المشرف على شئون أهل الذِّمَّـةِ م يهود ونصارى ، وزاد على ذلك ، فجعلـه سفيرًا له عنـد ملـوك الطوائف ، فـأحسن السفارة فى تـوثيق العلاقـات بين إمارة قـرطبة وغيرهـا من ممالك الأنـدلس وإمـاراتها ، وعقد معاهدات دفاعية بين قرطبة وغيرها ، وكان يمدح بعض الملوك الذين يوفده ابن جَهْوَر إليهم فتزداد الروابط ، كما كان يصحب صـديقه ـ ولى العهد ـ أبا الوليد بن أبى الحزم بن جهور فى بعض سفاراته .

وهكذا صـار الوزير ابن زيدون واحـدًا من رجال الدولـة المرموقين ، كما صار واحـدًا من الشعراء المعـدودين ، وأدت سفاراتـه للممالك المختلفة إلى انتشار قصائده الشعرية فى مواضع كثيرة من أرجاء بلاد الأندلس .

ولا ندرى هل تَظَاهَرَ أبو الحزم بن جَهْوَر بالزهد فى الحكم حتى يُنادى به الناس حاكمًا عليهم ، أم أنـه كان زاهدًا فيه فعلاً؟ لقد كـانت حركته تهدف إلى إصلاح البـلاد دون أية مطـامع شخصية ، خـاصة أنـه حين وَلِىَ الحكم أصلح أمورًا كثيرة منها منع الخمـر على سبيل المثال . . ولا ندرى هل وصل ابن جَهْـوَر إلى الحكم من خـلال خطـة محكمـة ، أم أن الظـروف هى التى سارت لصالحه ، فأظهرتـه بمظهر المخطِّط لكل الأحداث فى حين أنه لم يكن كذلك؟

ولا نـدرى هل كان ابن زيـدون على دراية بالخطة التى وضعها ابن جَهْوَر ـ إن كانت هنـاك خطة ـ أم أنه كـان معجبًا باتجاهه الإصـلاحى فسانده من أجل ذلك ؟ على أى حـال ، لقـد كانت النتيجـة هى وصـول أبى الحزم بن جَهْوَر إلى الإمارة ، ووصول ابن زيدون إلى الوزارة .

هى وَلّادَةُ بنت الخليفة المستكفِى محمـد بن عبد الله بن النـاصر لدين الله الأموى ، الذى تـولى الخلافة سنة ٤١٤هـ ، ثم خُلِعَ ، وَفَـرَّ من قـرطبة عام ٤١٦هـ ، واغتاله فى الطريق بعض أصحابه .

كانت ولّادَةُ ناصعة الوجه ، زرقاء العينين ، حمراء الشعر ، رائعة الجمال ، استطـاعت تحصيل قدر وافـر من العلم ، وكـانت شاعـرة أديبة ، أقـامت صالونًـا أدبيًا ـ قبل أن تعرف نساء فـرنسا الصالونات الأدبيـة بزمن طويل ـ وكان يَغْشَىَ صالونها الأدبى كبارُ رجال الأدب والفن والعلم فى قرطبة .

ذهب الوزيـر ابن زيدون إلى صالون الأميرة وَلّادَة للمـرة الأولى ، فأذهله جمالها ، وبهره ما تتحلى به من معـرفة بالأدب ورواية الشعـر وأخبار العرب ، وأُعجب بما امتـازت به أيضًا مـن جمالِ الروح ، وظرف الحديـث ، وحضور البـديهة ، مع صـونٍ وعفـاف ، بـرغم أنها رَفَعَتْ حجـابها ، وجلست إلى الرجال فى ندواتها الى كانت تقيمها فى قصرها .

كـانت وَلّادَةُ ترجـو أن يزدان صـالونها بحضـور الوزيـر الخطير أحمد بن زيدون، وحين جاء إليها رأت شابًّا وسيمًا ، فصيحَ العبارة ، بليغًا ، ظريفًا ، مرحًـا ، متمكنًا من الشعر تمكنًا تـامًّا ، يركب صهوتـه حيثما شاء ، ولمست ثقافته الواسعة . . ورأت فى عينيه ما لم يره الآخرون !

رأت نظرة حُبٍّ تبوح بإعجابه الكبير بها ، ورأت أن أمورًا كثيرة تجمع بينهما ، فكلاهما مثقف ثقافة رفيعة ، وكلاهما شاعر مُحب للأدب ، وكلاهما يعشق الموسيقى والغناء .

تكرر حضور ابن زيدون إلى صالون الأميرة وَلَّادَة ، وألح إليها برغبته فى التحدُّث إليها حديثًا خاصًّا ، فابتسمت . . ولم يَدْرِ ما ستفعله .

كانت وَلَّادَةُ لطيفةً ظريفة ، كتبت على كتفى ثوبها :

أَنَـــا ـ وَاللهِ ـ أَصْلُـــحُ لِلْمَعَـــالِى

وأَمْشِى مِشْـــيَـتِـــى وَأَتِيـــــهُ تِيهَـا

وَأُمْكِنُ عَـــاشِقِى مِنْ صَحْنِ خَـــدِّى

وَأُعْطِى قُبْلَتِى مَـنْ يَشْتَهِيهَــــــــا

ولم تكن وَلَّادَة ـ بالطبع ـ كما قالت فى بيتها الثانى ، إنما هو نوعٌ من خِفَّةِ الظِّلِّ والمداعبة اللطيفة ، مما جعل الشعراء يتهافتون على حضور صالونها الأدبى ، وبالرغم من لين حديثها ، ودلال حركاتها ، وأنوثتها المتفتحة ، ومداعباتها المرحة ، فإنها كانت تصون نفسها ، فقد كانت تضع حدًّا فاصلاً فلا تختلط البهجة بالخطأ ، وفى ذلك تقول :

إِنِّـى ـ وَإِنْ نَظَـــرَ الأَنَــامُ لِبَهْجَتِـى ـ

كَظِبَـــاءِ مَكَّـــةَ صَيْـــدُهُنَّ حَــــرَامُ

يُحْسَبْـنَ مِنْ أُنْسِ الحَدِيـثِ زَوَانِيًــــا

وَيَصُـــدُّهُنَّ عَنِ الخَنَـا الإِسْـــلَامُ

هكذا تبيّن ولادها أن تمسكها بدينها يجعلها دائمًا تتمسك بالصواب ، ولا تـزلُّ قـدمها إلى الخطـأ ، وسلوكها لا يتعـدى الائتنـاس بالحديث اللطيف الذى يبعث البهجة فى الحياة ، والفرحـة فى القلوب . وقد وصفها ابنُ بَسَّام الأديب والمؤرخ الأنـدلسى فقـال : « يعشـو أهل الأدب إلى ضـوء غِـرَّتهَا ، ويتهالك أفراد الشعراء والكُتَّاب إلى حلاوة عِشْـرَتها ، وإلى سهولة حجابها ، وكثرة مُنتـابها ، تخلط ذلك بعلوّ نِصَـابٍ ، وكرم أنسابٍ ، وطهـارة أثواب» . وقال الصَّفَدِىُّ : « كانت نادرة زمانها ظرفًا وحُسْنًا وأدبًا » .

وقد وصف ابن زيدون جمالها . . فقال :

رَبِيبُ مُلْـكٍ . . كَـــأَنَّ اللهَ أَنْشَـــأَهُ

مِسْكًـا . . وَقَـدَّرَ إِنْشَـاءَ الـوَرَى طِينَـا

أَوْ صَـاغَـهُ وَرِقًـا مَحْضًـا ، وَتَـوَّجَـهُ

مِنْ نَـاصِعِ التِّبْرِ إِبْـدَاعًـا وَتَـحْسِينَا

كَـانَتْ لَـهُ الشَّمْسُ ظِئْـرًا(*) فِى أَكِلَّتِـهِ

بَلْ مَـا تَجَلَّى لَــهَــا إِلاَّ أَحَــايِينَـا

كَــأَنَّمَا أُنْبِتَتْ فِى صَحْـنِ وَجْنَتِـــهِ

زُهْــرُ الكَـوَاكِبِ تَعْـوِيـذًا وَتَــزْيِينَا

قـالـت وَلاَّدَةُ شعـرًا ، وقـال الشعــراء ، وأنشـد ابـن زيـدون ، ودارت مناقشات فى مـوضوعات شتى ، وأوشك المجلس على الـوصول إلى نهايته ،

(*) الظئر : الحاضنة .

واكتفت وَلَّادَةُ بالابتسام حين ألمح ابن زيدون لها برغبته فى التحدث إليها مُنْفَرِدَيْنِ حاول التلميح لها مرة أخرى ، لكنها قاطعته حتى لا يكمل كلامه .

انفضَّ المجلسُ . . وانتابت ابن زيدون مشاعر شتى ، تلكأ فى الانصراف قليلاً ، لكنه لم يجد بُدًّا من وداع وَلَّادَة ، وحين هَمَّ بالذهاب دَسَّتْ وُرَيْقَةً فى يده ، فلما ابتعد فتحها . . فقرأ فيها :

تَرَقَّبْ إذَا جَنَّ الظَّلاَمُ زِيَارَتِى

فَإِنِّى رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمَ لِلسِّرِّ

وَبِى مِنْكَ مَا لَوْ كَانَ بِالشَّمْسِ لَمْ تَلُحْ

وَبِالبَدْرِ لَمْ يَطْلُعْ . . وَبِالْنَجْمِ لَمْ يَسْرِ

هكذا بَاحَتْ وَلَّادَةُ بما يعتمل فى صدرها تجاه ابن زيدون ، ومنحته موعدًا ، ليكون اللقاء الأول بينهما بعيدًا عن عيون الناس ، فنمت شجرة الحب وتفرعت ، واخضرَّتْ أغصانها .

وَجَـدَتْ بـذرةُ الحب أرضًـا صـالحة فى قَلْبِى ابن زيـدون وولاَّدَة بنت المستكفى ، كل منهما كان مثقفًا ثقـافة رفيعة ، ومفتونًـا بالموسيقى والغناء ، وكل منهما كان وسيمًا ، ظريفًا ، حاضرَ البديهة ، عَذْبَ الحديث ، وهما من صفوة الطبقـة الراقية ، وسِنهما متقـاربة ، وميولهما واحـدة ، ونشأ إعجاب طاغ جمع بينهما ، من أجل كل ذلك نبتت بذرة الحب ، ونمت ، وتفرعت ، وسقاها الشَّوْق المتبـادل بين الحبيبين حتى صارت شجرة كثيرة الثمار ، وَارِفَةَ الظلال .

وكان لقاء الحبُّ الأول حين زارت ولادة ابن زيدون زيارتها الأولى ، وباح كل منهما بحبـه لـلآخر ، وجلسـا يتحـدثان وينعمان بـاللِّقـاء . . ويصف الشاعر لقاءهما فيقول :

زَارَنِى بَعْـــدَ هَجْعـــةٍ ، وَالثُّـــرَيَّا

رَاحَـةٌ تَقْـــدِرُ (*) الظَّـلاَمَ بِشِبْــرِ

فَـرَشَفْتُ الـرُّضَـابَ أَعْـذَبَ رَشْفٍ

وَهَصَـرْتُ القَضِيب(**) أَلْطَفَ هَصْـرِ

(*) تقيس .
(**) المقصود بها جسمها .

وَنَعِمْنَــــــا بِلَـفِّ جِسْـمٍ بِجِسْـمٍ

لِلتَّصَــافِى ، وَقَــرْعِ ثَغْــرٍ بِثَغْــرِ

يَــا لَهَا لَيْلَــةً تَجَلَّى دُجَــاهَــا

ـ مِنْ سَنَا وَجْنَتَيْهِ ـ عَنْ ضَـوْءِ فَجْـرِ

قَصَّــرَ الـوَصْـلُ عُمْــرَهَا ، وَبِــوُدِّى

أَنْ يَطُــولَ القَصِيرُ مِنْهَــا بِعُمْــرِى

ونمت شجرة الحب بين ابن زيدون وَوَلَّادَة فى السِّــرِّ ، وحَافَظَ كل منهما على سِرِّ حبيبـه حتى تدوم عاطفـة المحبة بينهما ، وقـد عبر ابن زيدون عن ذلك فقال :

سَـــــأَقْنَعُ مِنْـكِ بِلَحْـظِ البَصَــــرْ

وَأَرْضَـىٰ بِتَسْلِيمِـكِ المُخْتَصَـــــــرْ

وَلاَ أَتَخَطَّـى الْتِمَاسَ الْـــــــــمُنَى

وَلاَ أَتَعَــدَّى اخْتِــلاَسَ النَّظَــرْ

أَصُــونُـكِ مِنْ لَحَظَــاتِ الظُّنُــونِ

وَأُعْلِيكِ عَـنْ خَطَــرَاتِ الفِكَــرْ

وَأَحْــذَرُ مِنْ لَـــحَظَاتِ الـرَّقِيبِ

وَقَــدْ يُسْتَــدَامُ الهَوَى بِــالحَذَرْ

وحان موعد انصراف وَلَّادَة ، كـان يتمنى أَلاَّ تتركه وتمضى ، وكان يتمنى

أن تقضى العمـر كلـه بجـواره ، لكنــه اضطـر إلى وداعهـا وهى تمضى إلى قصرها ، حيث سار بجوارها جزءًا من الطريق ، ثم عاد إلى داره وهو يقول :

وَدَّعَ الصَّبْـــــــــــرَ مُحِبٌّ وَدَّعَـكْ
ذَائِعٌ مِنْ سِـــــرِّهِ مَـــا اسْتَـــوْدَعَكْ
يَقْـــــرَعُ السِّنَّ عَلَى أَنْ لَـــــمْ يَكُـنْ
زَادَ فِي تِلْـــكَ الخُطَـــى إِذْ شَيَّعَـــكْ
يَـــا أَخَـــا البَـــدْرِ سَنَـــاءً وَسَنَـــا
حَفِـظَ اللهُ زَمَــــــانًـــــا أَطْلَعَـكْ
أَنْ يَطُـلْ بَعْـــــــدَكَ لَيْلِي . . فَلَكَـمْ
بِتُّ أَشْكُـــو قِصَـــــرَ اللَّيْـلِ مَعَكْ

وكبرت شجرةُ الحب ، وارتفعت عـاليًا ، وامتدت أغصانها ، وكـان لابد أن تظهر للناظرين ، فقد انطلقت قصائد ابن زيدون العاطفية تبوح بالشوق والعشق ، فـانكشف المستـور ، وأدَّت كثـرة المتنـافسين على عشق وَلَّادَة إلى سرعة اكتشاف هذا الحب ، عندئذٍ لم يجد ابن زيدون مبررًا لإخفاء عاطفته ، فأنشد قائلاً :

يَـا مَنْ غَـدَوْتُ بِـهِ فِي النَّـاسِ مُشْتَهِـرًا
قَلْبِي عَلَيْكَ يُقَـاسِي الْـهَـمَّ وَالفِكَـرَا
إِنْ غِبْتَ : لَـمْ أَلْقَ إِنْسَـانًـا يُـؤَانِسُنِي
وَإِنْ حَضَـرْتَ : فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ حَضَـرَا

غضبت وَلَّادَةُ من قول ابـن زيدون ، ورأت أنه مـا كان يجب عليـه سرعة الإعلان عن حبهما بهذه الطريقة السَّافرة ، ووجد خصومه الفرصة سانحة ، فزادوا غضبهـا عليه ، لكنه اعتذر لها ، لقـد أحب كل منهما الآخر ، لكنهما تَفَـرَّقَا نتيجة لسوء التفاهم الذى حَدَثَ بينهما ، وعانى ابن زيدون من بُعْدِها عنه ، كما عانت وَلَّادَةُ من بُعده عنها ، فباح بشكواه فى قصائده . . وكتبت هى له تقول :

أَلاَ هَلْ لَنَـا مِنْ بَعْـدِ هَـذَا التَّفَـرُّقِ

سَبِيلٌ . . فَيَشْكُـو كُلُّ صَبٍّ بِمَا لَقِى ؟

وَقَـدْ كُنْـتُ أَوْقَـاتَ التَّـزَاوُرِ فِى الشِّتَـا

أَبِيتُ عَلَى جَـمْرٍ مِنَ الشَّـوْقِ مُـحْـرِقِ

فَكَيْفَ وَقَـدْ أَمْسَيْـتُ فِى دَارِ قَطْعَـةٍ ؟

لَقَـدْ عَجَّـلَ المِقْـدَارُ مَـا كُنْتُ أَتَّقِى

تَـمُـرُّ اللَّيَـالِى ، لاَ أَرَى البَيْنَ يَنْقَضِى

وَلاَ الصَّبْـرَ مِنْ رِقِّ التَّشَـوُّقِ مُعْتَقِى

سَقَى اللهُ أَرْضًـا قَـدْ غَـدَتْ لَكَ مَنْـزِلاً

بِكُلِّ سَكُـوبٍ هَـاطِـلِ الـوَدْقِ مُغْـدِقِ

والتقى الحبيبان مرة أخرى ، وعاد صفاء الأيام بينهما ورفرفت حولهما طيور السعادة . . ولكن إلى حين .

نجح ابن زيدون نجاحًا عظيمًا ، فهو وزير موثوق فى أمانته وإخلاصه ، وهو سفير بارع بكل المقاييس ، وهو محظوظ ، لأنه الرجل الذى أحبته وَلاَّدَة التى يتهافت على حبها العظماء ، وهو أديب متفرد ، وكاتب خبير ، وشاعر مبدع مجيد ، كل هـذه الأمور جعلت ابن زيدون محلَّ غيرة مِمَّن كـانوا يتمنون أحَدَ المواقع التى احتلها فى السياسة أو الحب أو الأدب ، حيث احتل القمة فى كُلِّ هذه المواقع . ولم يكن باستطاعة أحد أن يسلبه موهبته الأدبية ، لذلك سَعَوْا إلى إسقاطه من مكانته السياسية ، وإلى زحزحته من قلب وَلاَّدَة .

والمكانـة السياسية يمكن السعى من أجل استعادتها ، أمَّـا الحب المفقود فكـان مـن الصعب استرداده بعـد فقـده . . لقــد فقـد ابن زيــدون حُبَّ وَلاَّدَة! . . وأسهم بنفسه فى ضياع وَلاَّدَة من يده ، لقد ضاقت به حين أعلن عن حبها ، وغضبت منه حين اندفع فى مخاصمة منافسيه فى حبها ، فمسها بكلام فيه تجريح وإهانة .

وكـان أخطـر المنـافسين لابن زيـدون فى حب وَلاَّدَة اثنين ، أولهما : أبـو عبدالله بن القَلاَّس ، وثانيهما : أبو عامر بن عبدوس .

أمـا أبو عبـد الله بن القَلاَّس فقـد وَجَّـه إليه ابن زيـدون قصيدة جعلتـه ينسحب من الميدان ، وقد استهلها قائلاً :

أَصِــخْ لِـمَقَـالَتِـى وَاسْـمَـعْ　وَخُـــذْ فِيمَـــا تَـــرَىٰ أَوْ دَعْ

وَأَقْصِـــرْ بَعْـــدَهَـــا أَوْ زِدْ　وَطِـــرْ فِى إِثْـــرِهَـــا أَوْ قَـــعْ

رأى أبو عبـد الله بن القَـلاَّس أن هذه اللهجة المفعمـة بالهجـاء والتهكم سوف تلحق به أذًى كثيرًا ، ومَسَّ ولاَّدَة خلال القصيدة بما يشين ، إذْ قال :

أَعِـدْ نَظَـــرًا فَـإِنَّ البَغْىَ مِـــمَّــا لَـمْ يَـــزَلْ يَصْـــرَعْ

وَلاَ تُطِـعِ التِى تُغْــــوِيـكَ ، فَهْىَ لِغَيِّهِـمْ أَطْـــــوَعْ

وَلاَ تَكُ مِنْـكَ تِلْكَ الـــــدَّارُ بِالمَــــرْأَى وَلاَ المَسْمَعْ

فَـــإِنَّ قُصَـــارَكَ الـــدِّهْلِيـــزُ حَيْثُ سِـــوَاكَ فِى المَضْجَعْ

هكذا يـدعو ابن زيدون منـافسه إلى الانصراف عن وَلاَّدَة ، لأنها منحت نفسها غَيْـرَهُ ، ولن تسمح لابن القَلاَّس إلاَّ ببعض الفُتات .

نجح ابن زيدون فى إبعـاد ابن القلاس ، لكنـه لم ينتبه إلى ما أحـدثه من جرح عميق لَدَى وَلاَّدَة .

أَمَّا أبو عـامر بن عبدوس فقد تلقى قصيدة ابن زيـدون وتحمّل ما فيها ، ولم ينسحب ، وظل يتودَّدُ لها ، ويتقـرب إليها ، وكان ابن زيدون قـد مَسَّهَا أيضًا فى عدة أبيات من تلك القصيدة ، منها قوله :

وَحَسْبِـــىَ أَنِّـــى أَطَبْـــتُ الجَنَـــى

لأَبَّـــــانِـــــهِ . . وَأَبَحْتُ النَّقَـضْ

لقد حصد الثمار الطيبة التى كانت لَدَى وَلاَّدَة، وترك لغيره ما لا يصلح ، وصمد ابن عبدوس فى ميـدان المنافسة ، فكتب ابن زيدون رسـالته الهزلية ،

وجعلها موجهة إلى ابن عبدوس على لسان وَلَّادَة ، وفى تلك الرسالة صَوَّرها ابن زيدون فى صورة المرأة المنحرفة ، فضاقت به جدًّا . ثم توالت أحداثٌ ، فقد لاحَظَتْ وَلَّادَة إعجابه بجاريتها « عتبة » ، فغضبت منه ، ثم كانت الطامة الكبرى حين اعتدى بالضرب على وَلَّادَة فى فورة غضب ، فكانت القطيعة ، وحاول ابن زيدون الاعتذار عن فَعْلَتِهِ تلك ، وندم عليها ، وقال فى ذلك :

إنْ تَكُفْ نَالَتْكِ بِالضَّرْبِ يَدِى
وَأَصَابَتْكِ بِمَا لَمْ أُرِدِ
فَلَقَدْ كُنْتُ - لَعَمْرِى - فَادِيًا
لَكِ بِالمَالِ وَبَعْضِ الوَلَدِ
فَثِقِى مِنِّى بَعَهْدٍ ثَابِتٍ
وَضَمِيرٍ خَالِصِ المُعْتَقَدِ
وَلَئِنْ سَاءَكِ يَوْمٌ فَاعْلَمِى
أَنْ سَيَتْلُوهُ سُرُورٌ بِغَدِ

لقد ندم ابن زيدون فعلاً ، ولكن الإهانات قد توالت وزادت عن حدها . . وهنا هجرته وَلَّادَة ، فأعلن أنه أَحَبَّ غيرها .

لم ينتبه ابن زيدون إلى أن مؤامرةً تُحَاكُ خيوطها ضده فى قصر الأمير أبى الحزم بن جَهْوَر . . لقد حشد خصومه كل إمكانياتهم حتى أقنعوا الأمير أن ابن زيدون يتآمر عليه ، وأنه يدعو لعودة مُلْك الأمويين ، وأوهموه أن الندوات الأدبية التى تُقيمها وَلَّادَة هى ندوات مريبة ، تخفى وراءها ما يُحاك

من مؤامرات لعودة بنى أمية للحكم ، خاصة أن وَلاَّدة هى بنت الخليفة الأموى المستكفى، وتبغى عودة أقاربها للحكم ، بل وأوهموا الأمير أيضًا أن ابن زيدون قد هجاه . . واستجاب الأمير أبو الحزم بن جَهْوَر لهذه الدسائس، وقرر التخلص من ابن زيدون .

رأى ابن جَهْوَر أن الاتهامات الموجهة لابن زيدون لا يمكن إثباتها ، لذلك استخدم دهاءه ، فبدأ بعزل القاضى العادل ابن ذكوان ، صديق ابن زيدون ، ثم عيّن مكانه ابن المكوى الذى لا يصلح للقضاء ، ودفع الأمير أحد رجالِ حاشيته إلى اتهام ابن زيدون باغتصاب عقار ، وتم تقديمه للمحاكمة، وبمجرد استماع القاضى إلى التهمة و إلى شاهد مشكوك فيه أمر بحبس ابن زيدون .

أدرك ابن زيدون المؤامرة ، وأُلقِىَ به فى السجن ما يقرب من عام وسبعة أشهر .

لقد شعر ابن زيدون بالظلم فى بداية الأمر ، لأن المحاكمة لم تكن عادلة، إذ اكتفى القاضى بشهادة شاهد واحد غير موثوق فيه ، ولم يعطِ ابن زيدون حقه فى الدفاع عن نفسه ، وحين شعر بالمؤامرة عرض الصلح على الخصوم، فتهرب القاضى من ذلك ، بالإضافة إلى هذا أنه إذا فُرِضَ ثبوت التهمة فيجب استيفاء الحق من أموال المتهم ، وابن زيدون ثرى يمكنه دفع ما يُطلب منه ، ولم يترك الفقهاء أمر الحبس فوضى بلا أَمَدٍ محدد ، لكن القاضى أمر بحبس ابن زيدون دون تحديد لمدة الحبس ، وأخيرًا قدّم ابن زيدون دليلاً كتابيًّا بخط صاحب العقار نفسه ، فلم يلتفت القاضى إليه .

لم يستمر الإحساس بالظلم طويلاً لَدَى ابن زيدون ، فقد وجد فى

السجن آلامًا تضاءل هذا الإحساس بجوارها . إنَّ مَنْ كان مثله من رجال الدولة يُحبس فى حجرةٍ منفردًا ولا تُمنع الزيارة عنه ، لكنهم ألقوا به بين الأوغاد واللصوص ، حيث وَجَدَ معاملةً قاسية ، وتعرض لآلام جسمانية زادت همومه ، وتعرَّض للأمراض ، لكن آلامه النفسية كانت أقسى من آلامه الجسمية ، لقد فَقَدَ حبيبته وَلَّادَة ، وخسر مكانته الرفيعة ، وصار يعانى من شماتة الأعداء ، ومن تنكُّر الأصدقاء الذين انقلبوا عليه فى محنته ، وكان يتألم مما يتصوره من حال أُمِّه ، حيث هو ولدها الوحيد .

لقد زاد معاناته فى السجن أنه كان رجلاً مُتْرَفًا مُرَفَّهًا ، عاش فى نعمة سابغة منذ مولده ، واعتاد أن تكون له الصدارة فى كل مجال ، وهو شاعر مرهف الإحساس ، يكون وَقْعُ الأحداثِ مُضاعفًا فى نفسه ، لذلك كان أثر ما تعرض له من نكبات أثرًا رهيبًا ، ومع ذلك تحمّل ابن زيدون ، ولم يجعل أعداءه ينعمون بشماتتهم فيه ، وأظهر لهم قُوَّتَهُ ، فإن الرياح لا تعصف بالملتصقين بالأرض ، وإنما تعصف بمن يرتفعون فى السماء ، والكسوف لا يلحق إلاّ بالشمس والقمر ، وإنْ كان قد وُضع فى السجن فإن السيف البَتَّار يُوضع فى غمده ، ومع ذلك يظل بتارًا قويًّا صارمًا . . وفى ذلك بعث بقصيدة من محبسه يقول فيها :

لاَ يُهْنِئُ الشَّامِتَ الْمُرْتَاحَ خَاطِرُهُ
أَنِّى مُعَنَّى الأَمَانِى ، ضَائِعُ الخَطَرِ
هَلِ الرِّيَاحُ بِنَجْمِ الأَرْضِ عَاصِفَةٌ ؟
أَمِ الكُسُوفُ لِغَيْرِ الشَّمْسِ وَالقَمرِ ؟

إنْ طَالَ فِي السِّجْنِ إيـدَاعِي فَلاَ عَجَبٌ

قَـدْ يُـودَعُ الجَفْنَ حَـدُّ الصَّـارِمِ الـذَّكَـرِ

هكذا اعتصم ابن زيدون بكبريائه أمام أعـدائه ، واشتد عوده بالرغم مما قاساه فى الحبس ، وكان لا بد أن تظهر قـوته وقدرته على مواجهة الأزمات ، فـلا ينكسر أمـام مصـاعب الحيـاة وأحـداثهـا الجِسَـام ، فهـو يتحلى بقـوة السيـاسى وصلابتـه ، وبراعـة السفير وَحُسْن تخلُّصِـه ، وفصاحـة الأديب وبلاغته . . وكان يجب عليه أن يستفيد بما يتمتع به من صفات كى يتخلص من النكبة التى أصابته .

بعث ابن زيدون عددًا من القصـائد إلى الأمير أبى الحزم بن جَهْوَر يذكّره بما قدمه إليه فى سالف الزمن كى تقـوم دولتـه ، وعليه أنْ يُـخَـلِّصـه مما هو فيه ، حتى إنْ كان قد أخطأ ، وفى قصائد أخرى يستعطفه كى يفك حبسه ، وبعث لـه رسالـة سُمِّيَتِ الرسالة « الجـدية » ، يطلب منـه فيهـا أن يُطلق سراحه ، وبعث إليه مَنْ يتوسط لـه عنده ، ولكن باءت كل هذه المحاولات بالفشل .

ولم يشأ ابن زيدون أن يهرب من السجن ، حتى لا تثبت عليـه التهمة ، ولكن حين فشلت محاولاته مع الأمير لم يجد أمـامه غير الفرار ، وقد سـاعده صديقه ولى العهد أبو الوليد بن أبى الحزم بن جَهْوَر ، فأخرجه من السجن ، وَأَعَدَّ له جوادًا قويًّا .

امتطى ابن زيدون صهـوة جواده ، وطـار به طيرانًا إلى إشبيليـة ، فوصل إليها فى يـوم واحـد ، بالرغم من أن المسافة بين قرطبـة وبينها تُقْطَعُ فى ثلاثة أيـام .

وصل ابن زيدون إلى إشبيلية فى شهر شعبان عام ٤٣٣هـ ، فاستقبله ملكها المعتضد بن عباد أحسن استقبال ، وقرَّبَهُ إليه ، وأنعم عليه ، وكتب ابن زيدون قصائد فى مَدْحِه وفى تهنئته بالزواج من ابنة مجاهد العامرى، وعاش فى كنف المعتضد منعمًا مُكَرَّمًا .

مكث ابن زيدون فى إشبيلية حتى انـدملت الجراح التى أوجدها السجن فى نفسـه ، عنـدئذٍ شبت نيران الأشـواق فى قلبـه ، وعصف بـه الحنين إلى قرطبة ، ففيهـا قَضَى سنوات عمره الماضى كلها ، وفيها أصحابـه القدماء ، وفيها الأماكن التى تحمـل أجمـل ذكـرياته . . وفيهـا حبيبـة الفـؤاد وَلَّادَة ، إنـه يذوب شـوقًا لـرؤيتهـا وحنينًا لها ، ويُشقيـه الفراق الـذى كُتب عليهما ويُدمى قلبـه .

وفى ليلـةٍ لم تغمض فيها جفـون ابن زيدون ، والتهبت فيهـا أعصابـه ، وحملت أمواج الشوق أحـلامه إلى حيث تحيا حبيبته ، وعزفت أوتـار المشاعر موسيقاهـا الرائعة وفتحت الأوراق صدورهـا ، وتحركت الريشة فى المحبرة ، وقفزت بين أصابع ابن زيدون ، ليخط فى الأوراق قصيدته النونية الخالدة :

أَضْحَى التَّنَـائِى بَـدِيـلاً مِنْ تَـدَانِينَـا
وَنَـابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَـانَـا تَجَافِينَـا
بِـنْتُـمْ وَبِنَّا . . فَـمَـا ابْتَلَّـتْ جَوَانِحُنَا
شَـوْقًـا إِلَيْكُمْ . . وَلاَ جَفَّـتْ مَـآقِينَـا

وناداه هـواه ، ودفعه الحنين للعـودة إلى قرطبة ، فعـاد حيث استخفى فى «الزهراء» ـ إحدى ضواحيها ـ ليمهد لدخوله إلى قرطبة .

أخذ ابن زيدون يراسل الأمير أبا الحزم بن جَهْوَر يعتذر إليه ، ويطلب منه العفو ، وراسَلَ أصدقاءه كى يشفعوا له عند الأمير ، وكتب رسالة رائعة إلى أستاذه أبى بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى ، وهى وثيقة تاريخية توضح محاكمته الظالمة ، وما لاقاه من معاملة سيئة فى سجنه .

وكتب ابن زيدون قصيدته الطَّائية ، وبعث بها لابن أفلح ملتمسًا شفاعته عند الأمير ، وهى من أجمل القصائد . . وفيها يقول :

وَقَدْ وَسَمُونِى بِالتِى لَسْتُ أَهْلَهَا
وَلَمْ يُمْنَ أَمْثَالِى بِأَمْثَالِهَا قَطُّ

وَإِنِّى لَرَاجٍ أَنْ تَعُودَ - كَبَدْئِهَا -
لِىَ الشِّيمَةُ الزَّهْرَاءُ وَالْخُلُقُ السَّبْطُ(*)

وراسَلَ ابن زيدون حبيبة القلب وَلَّادَةَ ، فبعث لها قصيدة من أحلى قصائد الشعر العربى ، استهلَّها قائلاً :

إِنِّى ذَكَرْتُكِ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقَا
وَالأُفْقُ طَلْقٌ . . وَوَجْهُ الرَّوْضِ قَدْ رَاقَا

ويتمنى أن يجىء يوم يجمع بين الحبيبين ، ويقول إن هذا اليوم لو جاء وتحقق فيه المراد لكان من أكرم الأيام أخلاقًا . . وهو معنى جميل . . يقول :

لَوْ شَاءَ حَمْلِى نَسِيمُ الصُّبْحِ حِينَ سَرَى
وَافَاكُمُو بِفَتًى أَضْنَاهُ مَا لاَقَى

(*) السبط : السهل الحسن الكريم .

يَـــوْمٌ كَـــأَيَّــــامٍ لَنَـــا انْصَــــرَمَتْ

تِبْنَـا لَهَا ــ حِينَ نَـامَ الدَّهْــرُ ــ سُـرَّاقَا

لَـوْ كَـانَ وَفَّى المُنَى فِي جَــمْعِنَا بِكُمُـو

لَكَــانَ مِنْ أَكْـــرَمِ الأَيَّـامِ أَخْـلاَقَـا

وراَسَلَ ابن زيدون أيضًا صـديقه ولى عهد قرطبة أبـا الوليد بن أبى الحزم بن جَهْوَر ، الـذى نجح فى أن يجعل أباه يعفو عن ابن زيـدون بعد محاولات عدة . فخرج ابن زيدون من مخبئه فى « الـزهراء » ، وأسرع إلى « قرطبة » وهو يكاد يطير شوقًـا إليها ، ويشعر أن قلبه يذوب حنينًـا إلى كل ما فيها ، وكل مَنْ فيها .

عاد ابن زيدون إلى قرطبة تحمله أجنحة الأحلام إلى الدنيا التى يحبها ، ولم يمضِ غير أشهرٍ قلائل حتى توفى الأمير أبو الحزم بن جَهْوَر ، وَوَلِىَ الإمارة ولده « أبو الوليد » ، صديق ابن زيدون الحميم ، كى تعود إلى شاعرنا أيامه الحلوة .

علم ابن زيدون أن الإشاعة التى أطلقها أعداؤه بشأن تواطئه مع الأمويين كانت لها آثار سلبية خطيرة على الحياة الأدبية والحياة الثقافية ـ بصفة عامة ـ فى قرطبة ، وقالوا إن صالون وَلَّادَةَ الأدبى يُخفى وراءه نشاطًا سياسيًّا يهدف إلى عودة الأمويين للحكم ، لذلك أمر أبو الحزم بن جَهْوَر بعدم عقد اللقاءات الأدبية فى قصر وَلَّادَة ، فانقطع ما كان ممتدًّا فى تلك الاجتماعات من مناقشات ثقافية راقية ، وامتنع الشعراء الذين كانوا يتغزلون فى وَلَّادَة ، بل وأحرق بعضهم ما كان قد كتبه فيها ، وربما كان فى هذا تفسير لقلّة القصائد التى وصلت إلينا فى هيام شعراء عصرها بغرامها ، بالرغم من تهافتهم على مَجالسها الأدبية ، ولا ينطبق ذلك على ابن زيدون بالطبع ، إذْ كتب معظم شعره فى حُبِّ وَلَّادَة .

كان « أبو الوليد بن جَهْوَر » يعلم أن مجلس وَلَّادَة لا يتعدى كونه مجلسًا للثقافة والفنون والآداب ، ومع ذلك دعاه حذره السياسى إلى عدم التصريح بإقامة ذلك المجلس ، لكنه أعاد ابن زيدون إلى مكانته

التى كان يتمتع بها فى قصر الحكم ، وكان يعلم الجرح الغائر فى صدره نتيجة لحرمانه مِنْ وَلَّادَة، لهذا أكثر من إرساله فى سفارات إلى ملوك الولايات المجاورة .

أدَّى ابن زيدون عمله على أكمل وجه ، إذْ أكسبته التجارب التى مر بها خبرة واسعة ، وتمكُّنًا ودهاءً ، وقد ساعده كل هذا على جَوْدَة الأداء فى سفاراته لدى ملوك الطوائف ، وأعانه على النجاح ما تحلَّى به من ثقافة ودراية، ووسامة ، وشعر راق ، وقدرة على الإقناع ، وما كان يتمتع به من شخصية مهيمنة ينساق لها الآخرون .

ذات مرة ، بين سفارة وأخرى ، مَضَى ابن زيدون إلى قصر وَلَّادَة ، وأبلغها الخدم بوجوده ، فأسرعت إليه ، ووقفت أمامه فى بهو القصر ، ومَرَّ بذاكرتها كل ما جرى من أحداث منذ لقائهما الأول . . حتى عاد إليها . وجلس الحبيبان يبث كل منهما أشواقه لصاحبه ، وكان اللقاء - الذى استمر لمدة دقائق معدودات - كافيًا لمحو فراقٍ دام عدة سنوات .

لقد نجح ابن زيدون فى استرداد مودَّة حبيبته ، حينذاك صفت نفسه ، وتوهجت مواهبه ، وأقبل على الحياة بهمَّة ونشاط ، يحدوه الأمل ، وتتقافز حول خطاه الأحلام ، متوقعًا أن يكون غَدُهُ أكثرَ إشراقًا وأكثر جمالاً من كل ما فاته من أيام .

وأدى نجاحه إلى ظهور خصومه مرة أخرى . ولم يتوقفوا عن الكيد له ، وألحُّوا فى انتقاصه عند الأمير أبى الوليد بن جَهْوَر ، وكثيرًا ما كان يضيق ابن زيدون بهم ، فيهتف فى الأمير :

فَـدَيْتُكَ . . كَمْ أَلْقَىٰ الفَـوَاغِرَ مِنْ عِـدًا
قِـــرَاهُـمْ لِنيرَانِ الفَسَـــادِ ثِقَـــابُ
عَفَـا عَنْهُمُـو قَدْرِى الـرَّفِيعُ فَأَهْجَـرُوا
وَبَـــايَنَهُمْ خُلْقِـى الجَمِيلُ فَعَـــابُـــوا

وتراجع الخصوم الضعفاء ، أمَّا الأقوياء فظلوا يُلاحقونه بالوشايات عند الأمير حتى أتاح لهم ابن زيـدون الفرصة ، إذ تأخـر فى سفارته إلى « مـالقة » حتى بعـد أن استعجلـه الأمير ، فلما عَادَ عَـزَلَـهُ من مناصبـه . وطلب منـه العفو. فأعـرض الأمير عنه ، فـارتحل إلى عدة إمارات للـزيارة والسيـاحة ، وراَسَلَ المعتضد بن عبَّاد ملك إشبيلية يعرض عليه خدماته .

وعـاد ابن زيـدون إلى قرطبـة ، فرضـى عنـه الأمير أبو الوليـــد بن جَهْوَر وأعـاده إلى مناصبه السابقة . ولم يَكُفَّ خصـومُ الشاعر مـن الإساءة إليـه ، وفى نفس الوقت عـادت وَلَّادَة إلى الترحيب بغـريمه ابن عبـدوس ، وأهملت ابن زيـدون ، وشعر بتغيُّر معاملة الأميـر لـه ، عنـدئذٍ خشى أن يلقى من أبى الوليـد ما لقيه من والده أبى الحـــزم بن جَهْوَر ، فقـرر الهجرة من قرطبة نهائيًّا ، فارتحـل إلى « بَطَلْيَوْس » ، ومنهـــا إلى « إشبيلية » ملبيًا دعـوة الملك المعتضـد بن عبـاد .

وقبل أن يرتحل من « بَطَلْيَـوْسَ » كتب عددًا من القصائد الرائعـة ، منها قصيدة يُناجى فيها وَلَّادَة ويقول :

هَلْ تَـذْكُـرُونَ غَـرِيبًـا عَـادَهُ شَجَنُ
مِنْ ذِكْـرِكُمْ ، وَجَفَا أَجْفَـانَهُ الـوَسَنُ ؟

يُــخْفِى لَوَاعِجَــهُ . . وَالشَّوْقُ يَفْضَحُــهُ

فَقَــدْ تَسَــاوَى لَــدَيْــهِ السِّــــرُّ وَالعَلَنُ

ومضى ابن زيـدون إلى « إشبيليـة » فاستقبلـه المعتضـد بن عَبَّاد أحسن استقبال ، فى حين شعـر أهل قرطبة وحاكمهـا بالفراغ الكبير الذى تـركه ابن زيدون ، وشعروا بالأسف لرحيله عنهم .

لقى ابن زيدون حفاوة بالغة حين نزل « إشبيلية » ، وغمره المعتضد بن عباد بعطاياه ، وجعله من المقربين إليه ، ثم عامله معاملة الصَّدِيق ، فصار يهدى إليه ، ويتقبل هداياه ، وقرَّب الشعر بينهما أكثر ، إذ كان كل منهما شاعرًا ، ومَرَّةً أَهْدَى إليه ابن زيدون هدية تفاح ، وكتب معها :

يَا مَنْ تَزَيَّنَتِ الرِّيَاسَةُ حِينَ أُلْبِسَ ثَوْبَهَا
جَاءَتْكَ جَامِدَةُ المُدَامِ . . فَخُذْ عَلَيْهَا ذَوْبَهَا

واستقرت الحياة بابن زيدون فى « إشبيلية » وتألق نجمه فى سمائها ، وعَلَتْ مكانته فى رحابها ، وتزوج وأنجب ، ولكن ظلت وَلَّادَةُ تُداعب مخيلته من حين إلى حين ، وظل يذكرها إلى آخر أيامه .

لم يكن الأمر سهلاً . . لقد احتفى به المعتضد عباد وقرَّبه ، ولكن ذلك لم يكن كافيًا حتى يعيش « ابن زيدون » آمنًا ، لقد كان - من قبل - وزيرًا وسفيرًا فى قرطبة ، ثم أُلقى به فى السجن بين يوم وليلة ، لذلك أراد أن يُؤَمِّن نفسه فى « إشبيلية » ، وكان الأمر صعبًا ، فإن بلاط المعتضد يغص بالشعراء والكُتَّاب والعلماء ، لذلك حشد ابن زيدون كل ما يمتلكه من خبرة فى معاملة الملوك ، ومن دهاء ، ومن مواهب متدفقة ، فاستطاع أن يشق طريقه بين حشود الشعراء ليصير شيخ الشعراء فى بلاط « إشبيلية » ، ثم أصبح المستشار الأول للمعتضد ، وهو منصب يشبه منصب رئيس الديوان

الملكى ، ثم عهد المعتضد إلى ابن زيدون بالسفارة بينه وبين ملوك الطوائف، لما يتمتع به من لباقة وحُسْن تصرف ، فصار بذلك يُلَقَّب بذى الوزارتين ، وهو لقب يختص به الملك أفرادًا معدودين يشاركونه التدبير ، بالإضافة إلى المشورة .

وعلا شأن ابن زيدون حين نجح فى كل ما كَلَّفَهُ به الحاكم من مهام ، وحين أجاد كل ما أوكل إليه من أعمال ، فعيَّنه المعتضد بن عباد رئيسًا لوزرائه . . ولكن لكل إنسان قُدرة وكفاءة ، والاجتهاد يحقق المستحيل .

لقد رأى ابن زيدون أن بإمكانه أن يضم بين يديه القويتين جميع المناصب الخطيرة فى الدولة ، وأراد أن يحظى بمنصب الكتابة ، إذ كان الكاتب يطَّلع على جميع أسرار الدولة ، ويتحدث باسمها فى الأمور الخطيرة ، لهذا أراد ابن زيدون أن يقتنص هذا المنصب بالإضافة إلى مناصبه الأخرى .

وكان طبيعيًّا أن يصطدم بابن حِصْنٍ كاتب المعتضد ، وقُتِلَ ابن حصن ، ولكن المعتضد عيَّـن ابن عبد البر فى هذا المنصب ، ثم غضب عليه وعزله ، وفكر فى تعيين أبى محمد الباجى ، ولكن تدخل أبو محمد بن الجد كى يجعل ابن زيدون يحظى بهذا المنصب الجليل ، وبهذا تجمعت شئون الدولة كلها فى يد ابن زيدون .

لم يتحقق ذلك لابن زيدون إلاَّ بعد صراعات حادة ، وخصومات عنيفة، مع ابن حصن أولاً الذى فتك به المعتضد ، ثم مع ابن عبد البر الذى عزله المعتضد وكاد يفتك به لولا وساطة رجال الدولة ، واستطاع ابن زيدون أن يتقى فتك المعتضد وغدره خلال عشرين عامًا منذ وصوله إشبيلية عام ٤٤١هـ . وعاش فى سلام مع حاكمٍ قلَّما سَلِمَ من الهلاك أحد من مُعاصريه ، لدرجة أنه فتك بابنه وولىِّ عهده إسماعيل . ولعل السبب فى

سلامة ابن زيدون يرجع إلى أمرين، أولهما: أن التجارب كانت قد حنكته، والأحداث قد صقلته، فاكتسب خبرة عميقة فى التعامل مع الملوك وأهل السياسة فى عصره، فعلم متى يصبر على منافسه حتى يوقعه فى الخطأ، ومتى يعلن مواجهته، وعلم كيف يخوض بين المتآمرين بالدهاء، وكيف يحيا بين الأصدقاء بالوُدِّ الصادق والوفاء والصفاء، لهذا كسب الأصدقاء وهزم الأعداء. أمَّا الأمر الثانى الذى أدَّى إلى سلامته فهو أن فتح قرطبة كان هو الحلم العظيم الذى رَاوَدَ المعتضد بن عَبَّاد، وقد ادَّخر ابن زيدون ليعينه على هذا الفتح، بما له من دراية بمواضع القوة ومواضع الضعف فى الدولة القرطبية، وبما يتمتع به من رصيد ضخم من محبة أهل قرطبة، لذلك حافظ المعتضد على ابن زيدون حتى يكون بجواره فى تحقيق هذا الحلم.

لقد بلغ ابن زيدون أعلى المناصب، وجمع فى يده أَزِمَّة[1] الحكم، وقاد الدولة قيادة حكيمة، اتسعت فيها رقعتها إلى أضعاف ما كانت عليه، وإنْ دَلَّ ذلك على شىء فإنما يدل على أن ابن زيدون لم يكن شاعرًا مجيدًا فحسب، بل كان أيضًا من رجال الحكم البارعين، وقد لاقى الكثير من العناء، وخاض الكثير من الصراعات، فصوّر بلاط المعتضد فى صورة جَنَّة لكنها محفوفة بالمكاره، فقال:

حَيْثُ اسْتُضِيفَ مَنْهَلٌ صَفَا إِلَى ظِلٍّ بَرَدْ
كَأَنَّهَا لِى جَنَّةٌ حُفَّتْ بِمَكْرُوهِ الحَسَدْ

لقد أحاط به الحُسَّاد، لكنه كان قد تعلم كيف يهزم حاسديه، وتكدَّرَ الصفاءُ بينه وبين المعتضد حينًا، فأبعده إلى مكان مجدب، فتوسل إليه

(*) جمع زمام.

بقصيدة ألَّا يجود به على الصحراء ، وذكَّره بما يكنه له من مودَّة وصفاء ، وأنه جدير منه بالعَوْن والولاء . . فقال :

وَلَـمَّـا قَضَيْنَـا مِنْ دُوَيْـرٍ لِرَجَـازَةً
تَـحَـدَّرَ دَمْعُ الـمُقْلَةِ الـمُـتَـرَقْـرِقُ

أَعَبَّادُ . . حَتَّى مِنْ هِبَاتِكَ مُخْلِصٌ
وَدُودٌ؟ . . وَمِنْ عَافِيكَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ؟[1]

تَعَـوَّدْتَ بَذْلَ المُنْفِسَـاتِ ، فَجُـدْتَ بِى
وَإِنِّـى بِصَـوْنٍ مِنْـكَ أَحْـرَى وَأَخْلَقُ

فأعـاده المعتضـد ليعـود الصفـاء بينهما ، فقـد كـانت الخلافـات مجرد سحابات عارضة ، تزول بمجـرد ظهورها . . وإلى ذلك أشار ابن زيدون فى قوله :

ضَـرَائِبُ جَهْمَـةٌ فِى العَتْبِ تُتْلَى
بِـأَخْـلاَقٍ لَـدَى العُتْبَى مِـلاَحِ

لقد كان العتاب كافيًا لإعادة جريان نهر المودَّة بين المعتضد وابن زيدون . وتجلَّت قدراته الفنية والأدبية فى هذه المرحلـة من حياته ، فتناقل الناس كثيرًا من مـواقفه التى تـدعو إلى العجب ، مـن ذلك ما رُوِىَ عن سرعـة بديهتـه وقدرته الكلامية ، إذْ رَوَى ابن بسام والمَقَّرِىُّ أنه وقف يتلقى العزاء فى ابنته ، فقيل إنه ما أعاد فى ذلك الموقف عبارة قـالها لأحد . قال الصفدى : « وهذا من التوسع فى العبـارة ، والقدرة فى التفنن على أساليب الكـلام، وأقل ما فى

(١) السَّمْلَقُ : القَفْرُ الذى لا نبات فيه .

تلك الجنازة - وهو وزير - ألف رئيس ممن يتعين أن يشكر له ، فيحتاج فى هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر ، وهذا كثير إلى الغاية ، لا سيما من محزونٍ فَقَدَ قطعة من كبده :

وَلَكِنَّهُ صَوْبُ العُقُولِ ، إذَا انْبَرَتْ   سَحَائِبُ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ »

وكان كثيرًا ما يرتجل الشعر فى مواقف شتى ، مهما كات وعورة القافية ، وامتاز بسلاسة قصائده ، وَرِقَّة ألفاظه وجمالها ، حتى أُطلق عليه بُحترى المغرب، تشبيهًا له بالشاعر البحترى .

واتضحت شخصية ابن زيدون فى تلك المرحلة من حياته فى «إشبيلية»، فهو رجل يضع الإحسان فى موضعه ، ويقابل الجحود بالجحود ، فقد أحسن إلى كثير من الشعراء والأدباء وقدمهم للمعتضد بن عباد ، أمثال محمد بن القصيرة ، كما تدخل عند المعتضد للعفو عن البعض ، مثل ابن عمار، الذى كتب لابن زيدون يقول :

يَا عُزَّةَ الزَّمَنِ البَهِيمِ

وَعِزَّةَ الأَدَبِ الذَّلِيلِ

اشْفَعْ عِنَايَتَكَ الجَلِيلَةَ

لِى لَدَى المَلِكِ الجَلِيلِ

وَلَئِنْ أَجَبْتَ لِرَاغِبٍ

وَأَقَلْتَ عَثْرَةَ مُسْتَقِيلِ

فَلَكَمْ أَتَيْتَ بِمِثْلِهَا

- وَهِيَ الصَّنِيعَةُ - فِى مَثِيلِى

كـان ابن زيـدون مخلصًـا لأصـدقـائه ، وفيًّـا لهم ، واتصـف بـالإباء والشجاعة . . لقد قضى حياته كلها فى كفاح ونضال لكى يصل إلى القمة ، وكلما نَكَبَه الزمان كان يهب من جديـد ليواجه مصاعب الحياة ، حتى تحقق له ما أراد .

وتطور فن المديح لدى ابن زيدون وهو فى إشبيلية ، ما بين البدء بمقدمة غزلية إلى الـدخول فى الغرض الأساسى للقصيدة مبـاشرة ، وكلما بدأ إحدى قصائده بالغزل نستحضر وَلَّادَة وقصة حبه معها ، ونستشعر وجودها فى كل خلجة من خلجات نفسه تبوح به أبياته الشعرية . . ومنها قوله :

وَكَـمْ أَسْقَمْـتِ مِـنْ قَلْـبٍ صَحِيـحٍ
بِسُقْمِ عُيُـونِـكِ المَـرْضَى الصِّحَـاحِ

مَتَى أُخْـفِ الغَـرَامَ يَصِفْـهُ جِسْمِى
بِـأَلْسِنَـةِ الهَوَى الخُـرْسِ الفِصَـاحِ

وَرُبَّ ظَـلامِ لَيْلٍ جَـنَّ فَـوْقِـى
فَنُبْتِ عَـنِ الصَّبَـاحِ إِلَى الصَّبَـاحِ

فَهَلْ عَـدَتِ العَفَـافَ هُنَـاكَ نَفْسِى
ـ فَـدَيْتُـكِ ـ أَوْ جَنَحْتُ إِلَى الجُنَـاحِ ؟

هكـذا ظلت أنفاس وَلَّادَة حـاضرة فى قصائده ، تُـذكّر من يستمع إليـه بقصة حبها الخالدة .

ومرت السنـوات ، وتهيأ المعتضد بـن عَبَّاد لفتح قـرطبة ، مستعينًا بـابن زيدون، ولكن توفى ابن عبَّاد قبل أن يتحرك للفتح عام ٤٦١ هـ .

وَلِىَ حُكم « إشبيلية » المعتمد بن عباد ، وكانت الصلة وثيقة جدًّا بينه وبين ابن زيدون ، فهو تلميذه ، تعلَّم المعتمد على يديه سنوات طوالاً ، وكان شاعرًا ، وقد اخترع ابن زيدون غرضًا جديدًا من أغراض الشعر العربى أسماه « المُطَيَّرَات » ، وهو عبارة عن أحاجِىَ وألغازٍ بالشعر عن الطيور ، وكتب فيه قصائدَ كثيرة ، كان يرد عليها المعتمد بن عبَّاد بالشعر أيضًا ، أو يكتب المعتمد فيرد عليه ابن زيدون ، ثم انضم إليهما محمد بن مكى ، لكن هذا الغرض مات بموت ابن زيدون .

ظن خصوم الشاعر أن الفرصة سنحت لهم لمهاجمته عند المعتمد بن عباد، فنسبوا إليه شعرًا فى هجاء المعتضد ، لكن المعتمد رَدَّ عليهم ردًّا أفحمهم ، وهددهم بمرِّ العقاب إذا تَقَوَّلُوا على ابن زيدون عنده ، وقد بعثوا بدسيستهم عبر قصيدة يدعون المعتمد فيها إلى الفتك بابن زيدون ، فكتب لهم على ظهر الورقة ، على نفس الوزن والقافية ، قصيدة استهلها قائلاً :

كَذِبَتْ مُنَاكُمْ ، صَرِّحُوا أَوْ جَمْجِمُوا

الدِّينُ أَمْتَنُ . . وَالمُرُوءَةُ أَكْرَمُ

وختمها بقوله :

كُفُّــوا . . وَإِلاَّ فَــارْقُبُــوا لِىَ بَطْشَــةً
يُلْقَــى السَّفِيــهُ بِمِثْلِهَــا فَيُحَلَّــمُ

وهدأت الدسائس ، وتراجع الخصوم ، وعاش ابن زيدون هانئًا فى ظل المعتمد بن عباد .

عــزّت قرطبـة على كل الملـوك الذيـن حاولـوا فتحهـا ، وكانت مَـحَطّ أحلامهم ، فهى حاضرة الخلافة الأموية ببلاد الأندلس ، واستطاع المعتمد بن عباد فتحها بمعونة وزيره وأستاذه ابن زيدون .

عاد ابن زيدون إلى بلده « قرطبة » قرير العين ، فأقام بين أهله وعشيرته ، وأثنـاء مـروره نظـر إلى قصر وَلاَّدَة بنت المستكفى ، الحبيبـة التى اهتـزت لها مشاعره ، وتذكر قصيدته النونية الخالدة :

أَضْحَى التَّنَـائِى بَـدِيـلاً مِنْ تَـدَانِينَـا
وَنَـابَ عَنْ طِيـبِ لُقْيَـانَـا تَـجَـافِينَا
بِنْتُمْ وَبِنَّـا . . فَمَا ابْـتَـلَّتْ جَوَانِحُـنَـا
شَـوْقًـا إِلَيْكُمْ . . وَلاَ جَفَّتْ مَـآقِينَا

وفى هـذه القصيدة تتجلّى قـدراته الفنيـة الرفيعـة ، ويتضح اعتماده على المقابلـة والتضاد ، فيجىء بـالمعانى وضـدها ، والكلمـة وضدهـا ، فنجد التنـائى ـ وهـو الابتعاد ــ وتدانينـا ، ونجد طيب لقيـانا وضـدها تجافينـا ، وابتلت وعكسها جفت ، ونجد جـوانحنا المختفية ومآقينا الظـاهرة لمن ينظر إلينا . . وعلى هذا المنوال تسير القصيدة بتلقائية محببة دون تعسف فى اختيار ألفاظهـا أو معانيها ، ونحس بـالعاطفـة المشبوبة تنطق فى أبيـاتها ، فنشعر بصدقها .

عاد ابن زيدون إلى قرطبة . . ولكن للأقدار تصاريف ، فإنه لم يكد يستقر بها حتى جاءت الأخبار بأن فتنة ثارت فى « إشبيلية » ، وقرر المعتمد إرسال ولده الحاجب سراج الدولة فى جيش كثيف لإخماد الثورة ، ولكن ابن مَـرْتين قائد جيش المعتمد بقرطبة ، والوزير ابن عمار ، أشارا عليه بإرسال ابن زيدون مع الجيش إلى « إشبيلية » ، لما يتمتع به من محبة شعبية وذكاء ولباقة وحُسْن تصرف .

واعتذر ابن زيدون لمرضه وشيخوخته ، فرفض المعتمد اعتذاره ، ولم يجد ابن زيدون أمامه غير الطاعة ، فمضى إلى « إشبيلية » حيث أدى مهمته على أكمل وجه ، واشتد عليه المرض ، فأسلم الروح فى شهر رجب عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م .

وصل نعى ابن زيدون إلى « قرطبة » ، فحزن عليه أهلها حزنًا شديدًا ، فقد كان متعصبًا لهم ، يحبهم ، وكان واسطة خير بينهم وبين المعتمد ، لذلك ثاروا على حُكم المعتمد بعد ذلك بفترة وجيزة .

أمـا المعتمـد فأحـس بالنـدم على مـا فعـل ، فعين ابن الشـاعـر مكـان أبيـه ، وجعلـه وزيـره ، وواليًـا على قـرطبـة ، ومشـرفًـا علـى دار سَـكِّ النقـود ، فقام بما كُلِّف بـه خيـر قيـام ، وحين واتتـه الفـرصـة انتقـم مـن أعـداء أبيـه .

وكما حزن أهل قرطبة على ابن زيدون حزن أهل « إشبيلية » أيضًا .

وقال ابن حيان ، المؤرخ المعاصر لابن زيدون : « لن يُخْلِفَ الدهر مثله جمالاً ، وبيانًا ، وبراعةً ، ولسانًا ، وظـرفًا ، وحلولاً من مراتب البلاغة نَظْمًا ونثرًا» .

وفى شرفة بقصر كبير خرجت سيدة ، نظرت إلى أرجاء قرطبة ، وتذكرت أيامًا راحت فى بحار الزمان ولن تعود ، وسالت دموعها فى صَمْتٍ على خديها . . وتذكرت قول ابن زيدون :

وَدَّعَ الصَّـبْـرَ مُـحـبٌّ وَدَّعَـكْ ذَائِعٌ مِـنْ سِـرِّهِ مَـا اسْـتَوْدَعَكْ

وأجهشت بالبكاء بصوت مسموع ، فأسرعت إليها جاريتها تسألها :

ما بكِ يا مولاتى وَلَّادَة ؟! . . . فلم ترد عليها ، واستغرقت فى البكاء .

* * *

حنين وشوق

أَضْحَى التَّائِى بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا ... وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا

مَنْ مُبْلِغُ الْمُلْبِسِينَا بِانْتِزَاحِهِمُ ... حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لاَ يَبْلَى ، وَيُبْلِينَا :

أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِى مَا زَالَ يُضْحِكُنَا ... أُنْسًا بِقُرْبِهِمُ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا ؟

غِيظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الهَوَى ؛ فَدَعَوْا ... بِأَنْ نَغَصَّ ، فَقَالَ الدَّهْرُ : آمِينَا

فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا ... وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولاً بِأَيْدِينا(١)

وَقَدْ نَكُونُ ، وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا ... فَالْيَوْمَ نَحْنُ ، وَمَا يُرْجَى تَلاَقِينَا

* * *

لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلاَّ الْوَفَاءَ لَكُمْ ... رَأْيًا ، وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا

مَا حَقُّنَا أَنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذِى حَسَدٍ ... بِنَا ، وَلاَ أَنْ تَسُرُّوا كَاشِحًا فِينَا(٢)

* * *

بِنْتُمْ وَبِنَّا ، فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقًا إِلَيْكُمْ ، وَلاَ جَفَّتْ مَآقِينَا(٣)

نَكَادُ ـ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا ـ ... يَقْضِى عَلَيْنَا الْأَسَى، لَوْلاَ تَأَسِّينَا(٤)

---

(١) انبتَّ : انقطع .

(٢) الكاشح : المضمر للعداوة .

(٣) بِنتُم وبنَّا : بعدتم وبعدنا .

(٤) التَّأَسِّى : التَّصَبُّر والتَّعَزِّى .

حَـالَتْ لِفَقْـدِكُمُ أَيَّامُنَـا ، فَغَـدَتْ　　سُـودًا ، وَكانَتْ بِكُمْ بِيضًـا لَيَالِينَـا

إِذْ جـانِبُ الْعَيْشِ طَلْقٌ مِنْ تَـأَلُّفِنَـا　　وَمَـرْبَعُ اللَّهْـوِ صَافٍ مِنْ تَصَـافِينَـا

وَإِذْ هَصَـرْنَا فُنُـونَ الْـوَصْلِ دَانِيَـة　　قِطَـافُهَا ، فَجَنَيْنَـا مِنْـهُ مَا شِينَـا[1]

* * *

لِيُسْقَ عَهْـدُكُ عَهْـدُ السُّـرُورِ ، فَمَا　　كُنْتُمْ لأَرْوَاحِنَـــا إِلاَّ رَيَـاحِينَـــا

لاَ تَـحْسَبُوا نَـأْيَكُمْ عَنَّـا يُغَيِّـرُنَا　　إِنْ طَـالَمَا غَيَّـرَ النَّـأْيُ الْمُحِبِّينَـا[2]

وَاللهِ مَـا طَلَبَتْ أَهْـوَاؤُنَـا بَـدَلاً　　مِنْكُمْ ، وَلاَ انْصَـرَفَتْ عَنْكُم أَمَانِينَا

وَلا اسْتَفَـدْنَـا خَلِيـلاً عَنْكِ يَشْغَلُنَـا　　وَلاَ اتَّـخَـذْنَا بَدِيـلاً مِنْكِ يُسْلِينَـا

* * *

يَا سَارِيَ الْبَرْقِ غَادِ الْقَصرَ وَاسْقِ بِهِ　　مَنْ كَـانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوُدِّ يَسْقِينَـا

وَأَسْأَلْ هُنَالِكَ : هَلْ عَنَّى تَـذَكُّرُنَـا　　إِلْفًـا ، تَـذَكُّرُهُ أَمْسَـى يُعَنِّينَـا ؟[3]

وَيَـا نَسِيْمَ الصَّبَـا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَـا　　مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَتَّى كَانَ يُـحْـيِينَا

فَهَلْ أَرَى الـدَّهْرَ يَقْضِيـنَا مُسَاعَفَـةً　　فِيهِ ، وَإِنْ لَـمْ يَكُنْ غِبًّا تَقَاضِينَا ؟[4]

* * *

رَبِيبُ مُلْـكٍ كَـأَنَّ اللهَ أَنْشَـأَهُ　　مِسْكًا ، وَقَدَّرَ إِنْشَـاءَ الْوَرَى طِينَا[5]

أَوْ صَـاغَـهُ وَرِقًا مَحْضًـا ، وَتَـوَّجَـهُ　　مِنْ نَاصِعِ التِّبْرِ إِبْـدَاعًا وَتَـحْسِينَا[6]

إِذَا تَـأَوَّدَ آدَتْـهُ رَفَـاهِيَـةً　　تُومُ الْعُقُودِ ، وَأَدْمَتْهُ الْـبُـرَى لِينَا[7]

---

(١) هَصَرْنَا : أَمَلْنَا .　　ماشينا : ما شِئْنَا .

(٢) النَّأْيُ : البُعْدُ والفراق .

(٣) عَنّى : آلم وأتعب .

(٤) المعنى : طالما تقاضينا الوصال ، فهل يسمح الدهر به بعد طول المطال ؟

(٥) المعني : سليل بيت ملكى كأن الله خلق الوَرَى من الطين وخلقه وحده من المسك .

(٦) الوَرِقُ : الدراهم الفضِّية . والمعنى : أنه أبيض الوجه ذهبىّ الشعر .

(٧) تأوّد : تمايل . آدتْهُ : أثْقَلَتْه .　　تُوم العقود : عقود مزدوجة من اللؤلؤ .
البُرَى : الخلاخيل ، جمع برة . والمعنى : إذا تمايل لم يطق حمل الحلى الكثيرة لرقته ولينه .

كَانَتْ لَـهُ الشَّمسُ ظِـئْـرًا فِى أَكِلَّتِـهِ   بلْ مَـا تَـجَـلَّى لَهَا إِلاَّ أَحَـايِينَـا[1]

كَـأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِى صَحْـنِ وَجْنَتِـهِ   زَهْـرُ الْكَـوَاكِبِ تَعْـوِيذًا وَتَـزْيِينَا[2]

مَا ضَـرَّ أَنْ لَـمْ نَكُنْ أَكْفَـاءَهُ شَـرَفًا   وَفِى الموَدَّةِ كَـافٍ مِنْ تَكَـافِينَـا

* * *

يَا رَوْضَـةً طَالَـمَـا أَجْنَتْ لَـوَاحِظَنَا   وَرْدًا جَلاَهُ الصِّبَا غَضًّـا وَنِسْـرِينَا[3]

وَيَـا حَيَـاةً تَمَلَّيْنَـا بِـزَهْـرَتِهَا   مُـنًى ضُـرُوبًا وَلَـذَّاتٍ أَفَـانِينَـا[4]

وَيَـا نَعِيمًا خَطَـرْنَا مِنْ غَضَـارَتِـهِ   فِى وَشْيِ نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَـهُ حِينَا[5]

لَسْنَـا نُسَمِّيكِ إِجْـلاَلاً وَتَكْـرِمَـةً   وَقَـدْرُكِ المُعْتَلِى عَنْ ذَاكِ يُغْنِينَـا

إِذَا انْفَـرَدْتِ وَمَا شُـورِكْتِ فِى صِفَةٍ   فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِيضَـاحًا وَتَبْيِينًا[6]

* * *

يَـا جَنَّـةَ الْـخُلْدِ أُبْـدِلْنَـا بِسِـدْرَتِهَا   وَالْكَوْثَـرِ الْعَذْبِ زَقُّومًـا وَغِسْلِينَا[7]

إِنْ كَانَ قَدْ عَـزَّ فِى الدُّنْيَا اللِّقَاءُ فَفِى   مَوَاقِفِ الْـحَشْـرِ نَلْقَاكُمْ ، وَيَكْفِينَا

كَـأَنَّنَـا لَـمْ نَبِتْ ، وَالْـوَصْلُ ثَـالِثُنَـا   وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِـنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا

---

(١) الظئر : الحاضنة .   أَكِلَّة : جمع كلّة ، وهى نسيج رقيق للوقاية من البعوض .

(٢) المعنى : كأنها أشرقت النجوم فى محيّاه لتقيه الحسد ، وتردّ عه العيون .

(٣) النسرين بكسر النون : زهر طيب الرائحة .

(٤) تملّينا : تمتعنا .   ضروبًا : صنوفًا . والمعنى جنينا من نعيم الحياة شتى المتع واللذات .

(٥) الغضارة : السعة والخصب والنعمة .

(٦) معنى البيتين : أننا نصون اسمك عن التصريح به إكبارًا لكِ وإجلالاً ، فإن انفرادك بالجمال والجلال لا يحوجنا إلا إلى أدنى إشارة .

(٧) السدر : شجر النبق ، والزقوم : شجرة خبيثة ذات ثمر مُرٍّ ، وقد ورد فى التنزيل أنها ﴿ شجرةٌ تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾ ، أما طعامها فهو ﴿ طعام الأثيم ، كالمُهْل يغلى فى البطون كغَلْىِ الحميم ﴾ . والغسلين : طعام من أطعمة أهل النار .

سِــرَّانِ فى خَـاطِـرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَـا حَتَّى يَكَـادَ لِسَــانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَـا

لاَغَرْوَ فى أَنْ ذَكَرْنَـا الْحُـزْنَ حِينَ نَهَتْ عَنْهُ النُّهَى، وَتَرَكْنَا الصَّبْـرَ نَاسِينَا[1]

إِنَّـا قَـرَأْنَا الأَسَـى يَوْمَ النَّـوَى سُـوَرًا مَكْتُـوبَةٌ ، وَأَخَـذْنَـا الصَّبْـرَ تَلْقِينَـا

أَمَّــا هَــوَاكِ فَلَمْ نَعْــدِلْ بِمَنْهَلِــهِ شِرْبًا ، وَإِنْ كَانَ يُـرْوِينَا فَيُظْمِينَا[2]

لَــمْ نَجْفُ أُفْقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَـوْكَبُـهُ سَالِينَ عَنْـهُ ، وَلَـمْ نَهْجُرْهُ قَـالِينَا[3]

وَلاَ اخْتِيَــارًا تَــجَنَّبْنَاهُ عَـنْ كَثَبٍ لَكِنْ عَدَتْنَـا ـ عَلَى كُرْهٍ ـ عَـوَادِينَا[4]

نَأْسَى عَلَيْكِ إِذَا حُـثَّـتْ مُشَعْشَعَةً فِينَـا الشَّمُـولُ ، وَغَنَّـانَـا مُغَنِّينَـا[5]

لاَ أَكْـؤُسُ الرَّاحِ تُبْـدِى مِنْ شَمَائِلِنَـا سِيمَا ارْتِيَـاحٍ ، وَلاَ الأَوْتَــارُ تُلْهِينَـا

دُومِى عَلَى الْعَهْدِ ـ مَا دُمْنَا ـ مُحَافِظَةً فَالْـحُـرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَـافًا ، كَمَا دِينَا

فَمَا اسْتَعَضْنَـا خَلِيلاً مِنْكِ يَـحْبِسُنَا وَلاَ اسْتَفَـدْنَــا حَبِيبًـا عَنْـكِ يَثْنِينَـا

وَلَوْ صَبَـا نَـحْــوَنَا مِنْ عُلْـوِ مَطْلَعِهِ بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكِ يُصْبِينَا[6]

أَوْلِى وَفَـاءً ــ وَإِنْ لَمْ تَبْــذُلِى صِلَـةً ـ فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا ، وَالـذِّكْرُ يَكْفِينَا[7]

وَفى الْــجَوابِ مَتَـاعٌ إِنْ شَفَعْتِ بِـهِ بِيضَ الأَيَـادِى الَّتِى مَا زِلْتِ تُـولِينَا

عَلَيْكِ مِنَّــا سَـــلاَمُ اللهِ مَــا بَقِيَتْ صَبَــابَــةٌ بِـكِ نُخْفِيهَــا فَتُخْفِينَــا

---

(١) النُّهَى : العقول .

(٢) المعنى : أننا نفضل منهلكم على أىِّ منهلٍ آخر ، وإن كان يزيدنا عطشًا كلما ازددنا منه شربًا .

(٣) قالين : كارهين .

(٤) كَثَب : قُرب . والمعنى : أنه اضطر إلى فراقها مرغمًا ، على قرب دارها منه .

(٥) مشعشعة : ممزوجة . والشمول : الخمر .

(٦) صبا : مال . يُصبينا : يثير صبوتنا ويبتعث أشواقنا .

(٧) أَوْلِى : أَنْعِمِى .

الأمل المنشـود

يَـا نَـازِحًـا ، وَضَمِيرُ الْقَلْبِ مَثْـوَاهُ   أَنسَتْكَ دُنْـيَـاكَ عَـبْـدًا أنْتَ دُنْـيَـاهُ
أَلْهَتكَ عَنْـهُ فُكَـاهَـاتٌ تَلَـذُّ بِهَا   فَلَيْسَ يَـجْـرِى بِبَـالٍ مِنْـكَ ذِكْـرَاهُ
عَلَّ اللَّـيَالِىَ تُبْقِينِى إِلى أَمَـلٍ   الدَّهْـر يَعْـلَمُ والأَيَّـامُ مَعْـنَـاهُ

مقصوص الجناح[1]

إِلَيْكِ ــ مِنَ الْأَنَامِ ــ غَدَا ارْتِيَاحِي ... وَأَنْتِ ـ عَلَى الزَّمَانِ ـ مَدَى اقْتِراحِي

وَمَا اعْتَرَضَتْ هُمُومُ النَّفْسِ إِلَّا ... ـ وَمِنْ ذِكْرَاكِ ـ رَيْحَانِي وَرَاحِي

فَدَيْتُكِ ، إِنَّ صَبْرِي عَنْكِ صَبْرِي ... ـ لَدَى عَطَشِي ـ عَلَى المَاءِ الْقَرَاحِ[2]

وَلِي أَمَلٌ ــ لَوِ الْوَاشُونَ كَفُّوا ـ ... لَأَطْلَعَ غَرْسُهُ ثَمَرَ النَّجَاحِ

وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوٌّ ... رِضَاكِ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَاحِ !

وَلَمَّا أَنْ جَلَتْكِ لِيَ ــ اخْتِلَاسًا ... أَكُفُّ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ المُتَاحِ

رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابٍ ... وَغُصْنَ الْبَانِ يَرْفُلُ فِى وِشَاحِ

فَلَوْ أَسْطِيعُ طِرْتُ إِلَيْكِ شَوْقًا ... وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ؟[3]

فؤَادِى ــ مِنْ أَسًى بِكِ ـ غَيْرُ خَالٍ ... وَقَلْبِى ـ عَنْ هَوًى لَكِ ـ غَيْرُ صَاحِ

عَلَى حَالَىْ وِصَالٍ وَاجْتِنَابٍ ، ... وَفِى يَوْمَىْ دُنُوٍّ وَانْتِزَاحِ

وَحَسْبِىَ أَنْ تُطَالِعَكِ الْأَمَانِى ... بِأُفْقِكِ فِى مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحِ

وَأَنْ تُهْدِى السَّلَامَ إِلَىَّ غِبًّا ... وَلَوْ فِى بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيَاحِ[4]

---

(١) كتبها بعد هجر حبيبته .

(٢) الماء القَراح : الصافى .

(٣) أسطيع : أستطيع ، وحُذفت التاء للتخفيف .

(٤) غبًّا : حينًا بعد حين .

القلب الرحيب

لَئِنْ كُنْتَ فِى السِّنِّ تِرْبَ الْهِلَالِ

لَقَدْ فُقْتَ بالْحُسْنِ بَدْرَ الْكَمَالِ[1]

أَمَا وَالذِى نَكَدَ الْحَظَّ فِى دُنُوِّ المَكَانِ بِبُعْدِ المَنَالِ

لَقَدْ بَلَّغَتْنِى دَوَاعِى هَوَاكَ إِلَى غَايَةٍ مَا جَرَتْ لِى بِبَالِ

فَقُلْ لِلْهَوَى : « يَجْرِ مِلْءِ الْعِنَان » فَمَيْدَانُ قَلْبِى رَحِيبُ المَجَالِ[2]

(١) ترب الهلال : أى فى سِنّه .

(٢) العنان : اللجام ، وجرى ملء عنانه ، أى إلى أقصى ما يستطيع .

عتب وإعتاب

يَا قَمَرًا مَطْلَعُهُ المَغْرِبُ   قَدْ ضَاقَ - فى حُبِّكَ - الْمَذْهَبُ
أَعْتِبُ - مِنْ ظُلْمِكَ لِى - جَاهِدًا ،   وَيَغْلِبُ الشَّوْقُ فَأَسْتَعْتِبُ[1]
أَلْزَمْتَنِى الذَّنْبَ الّذِى جِئْتَهُ ،   صَدَقْتَ !! فَصْفَحْ أَيُّهَا الْمُذْنِبُ
وَإِنَّ مِنْ أَغْرَبِ مَا مَرَّ بِى   أَنَّ عَذَابِى فِيكَ مُسْتَعْذَبُ

(١) أستعتب : أسترضى .

السر المصون

بَيْنِى وَبَيْنَكَ - مَا لَوْ شِئْتَ لَمْ يَضِعِ - سِـــرٌّ إذَا ذَاعَتِ الْأَسْــرَارُ لَـمْ يَـذِعِ

يَـا بَـائِعًا حَظَّـهُ مِنِّى ، وَلَـوْ بُـذِلَتْ لِيَ الْـحَيَاةُ - بِحَظِّى مِنْـهُ - لَـمْ أَبِعِ

يَكْفِيكَ أَنَّكَ إِنْ حَـمَّلْتَ قَلْبِيَ مَـا لَـمْ تَسْتَطِعْـهُ قُلُوبُ النَّـاسِ يَسْتَطِعِ

تِـــهْ أَحْتَمِلْ ، وَاسْتَطِلْ أَصْبِرْ ، وَعِــزْ أَهُنْ ،
وَوَلِّ أُقْبِلْ ، وقُـلْ أَسْمَعْ ، وَمُـــرْ أُطِـــعِ

عَلَّةُ العطشان

أحبت جارية فتى قرشيًا فألهمها حبها هذا البيت :

يَــــا مُعْطِشِى مِنْ وِصَــــالٍ كُنْتُ وَارِدَه
هَلْ مِنْكَ لِى عَلَّــةٌ إِنْ صِحْتُ أو عَطَشى؟!

ولم تستطع أن تزيد عليه ، فلجأت إلى الشاعر تستزيده ، وكان يعلم قصتها فأنشدها :

يَــــا مُعْطِشِى مِنْ وِصَــــالٍ كُنْتُ وَارِدَهُ
هَلْ مِنْكَ لِى عَلَّـةٌ إِنْ صِحْتُ «وَاعَطَشِى»؟!(١)

كَسَوْتَنِى ـ مِنْ ثِيَابِ السُّقْمِ أَسْبَغَهَا ـ ـ ظُلْمًا ـ وَصَيَّرْتَ مِن لُحفِ الضَّنَى فُرُشِى
أَنَّى بَصَــرْفِ الهَوَى ، عَـنْ مُقْلـةٍ كُحِلَتْ بِالسِّحْرِ مِنْكَ وَخَـدٍّ بـالجَمَالِ وُشِى ؟(٢)
لَـمَّـا بَدَا الصُّدْغُ مُسْـوَدًا بِأَحْـمَـرِهِ أَرَى التَّسَالُمَ بَيْـنَ الـرُّومِ والْـحَبَشِ(٣)

---

(١) عَلَّـة : شربة ثانية ، مأخوذة من العلل ، وهو الشرب الثانى ، ويقال : علل بعد نهل .

(٢) المعنى : كيف أصرف قلبى المتعلق بك عن طرفك الساحر ، وخدك المزّين بالجمال ؟

(٣) الصُّـدغ : ما بين العين والأذن ، أو الشعر المتدلى عليه ، وهو المقصود هنا . . يشبه انسدال الشعر الأسود على الخد الأحمر بمجاورة الحبشى الأسود للرومى الأصهب .

أَوْفَى إِلَى الْـخَـدِّ ، ثُـمَّ انْصَـاعَ مُنْعَطِفًـا كَالْعُقْرُبَـانِ انْثَنَى مِنْ خَوْفِ مُحْتَـرِشِ[1]

لَوْ شِئْتَ زُرْتَ ـ وَسِلْكُ النَّجْمِ مُنْتَظِمٌ ، وَالأُفْقُ يَـخْتَالُ فِي ثَـوْبٍ مِنَ الْغَبَشِ ـ[2]

صَبًّا ـ إِذَا التَـذَّتِ الأَجْفَانُ طَعْمَ كَـرًى ـ جَفَا المَنَامَ ، وَصَاحَ اللَّيْلَ : « يَا قُرَشِي »!

هٰــذَا وَإِنْ تَلِفَتْ نَفْسِي ، فَــلاَ عَجَـبٌ !

قَـدْ كَـانَ مَـوْتِيَ ـ مِـنْ تِلْكَ الْـجُفُـون ـ خُشِي

(١) العُقربان : ذكر العقرب . والمعنى : مالت خصلة شعره على خَـدِّهِ ثم انعطفت مستديرة كما تستدير العقرب على نفسها إذا خشيت الأذى .

(٢) الغبش : ظلمة آخر الليل .

الروح والجسد

لَـمَّـا اتَّصَلْتِ اتِّصَـالَ الْـخِلْبِ بِـالْكَبِـدِ

ثُمَّ امْتَـزَجْتِ امْتِـزَاجَ الـرُّوحِ بِالْـجَسَدِ[1]

سَاءَ الْوُشَاةَ مَكانِي مِنْكِ ، وَاتَّقَدَتْ ـ فِي صَدْرِ كُلِّ عَدُوٍّ ـ جَـمْرَةُ الحَسَدِ

فَلْيَسْخَطِ النَّاسُ لاَ أُهْدِ الرِّضَا لَهُمُ، وَلاَ يَضِعْ لَكِ عَهْـدٌ آخِـرَ الأَبَـدِ

لَوِ اسْتَطَعْتُ ــ إذَا مَا كُنْتِ غَـائِبَةً ـ غَضَضْتُ طَرْفِي، فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدِ

(١) الخلب : حجاب رقيق للكبد ، أو شيء أبيض رقيق لازق بها .

اختلاس النظر

سَأَقْنَعُ مِنْكِ بِلَحْظِ الْبَصَرْ وَأَرْضَى بِتَسْلِيمِكِ الْمُخْتَصَرْ

وَلاَ أَتَخَطَّى الْتِمَاسَ الْمُنَى وَلاَ أَتَعَدَّى اخْتِلاَسَ النَّظَرْ

أَصُونُكِ مِنْ لَحَظَاتِ الظُّنُونِ وَأُعْلِيكِ عَنْ خَطَرَاتِ الْفِكَرْ

وَأَحْذَرُ مِنْ لَحَظَاتِ الرَّقِيبِ وَقَدْ يُسْتَدَامُ الْهَوَى بِالْحَذَرْ

حُبٌّ ونشوة

مَا لِلْمُدامِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكِ ... فَيميلَ فى سُكْرِ الْهَوَى عِطْفَاكِ ؟

هَلاَّ مَزَجْتِ لِعَاشِقِيكِ سُلاَفَهَا ... بِبَرُودِ ظَلْمِكَ أَوْ بِعَذْبِ لَمَاكِ ؟[1]

بَلْ مَا عَلَيْكِ - وَقَدْ مَحَضْتُ لَكِ الْهَوَى -
فى أَنْ أَفُوزَ بِحُظْوَةِ الْمِسْوَاكِ ؟[2]

نَاهِيكَ ظُلْمًا أَنْ أَضَرَّ بِىَ الصَّدَى ... بَرْحًا ، وَنَالَ الرِّىَّ عُودُ أَرَاكِ[3]

* * *

وَاهًا لِعَطْفِكِ !! وَالزَّمَانُ كَأَنَّمَا ... صُبِغَتْ غَضَارَتُهُ بِبُرْدِ صِبَاكِ[4]

---

(١) السُّلاف : ما تَحَلَّبَ وسال قبل عصر الثمار ، وهو أجودُ الخمر ، والبَرُود : العذب البارد ، والظَّلْم : ماء الأسنان أو بريقها ، واللَّمَى : سُمرة الشفة ، ولعلها ناشئة من شدة الاحمرار . والمعنى : أتمنى أن تمزجى لعاشقيك كئوس الراح بريقك العذب البَرُود .

(٢) مَحَضَ : أَخْلَصَ ، والحظوة : المنزلة القريبة الطيبة . والمعنى : ماذا يضيرك فى أن أفوز من ريقك العذب بما يفوز به المسواك ، وقد أخلصت لك الحب والهيام ؟

(٣) ناهيك : حسبك ، وبَرْحًا : جُهْدًا ومشقة ، والأراك : شجر تُتخذ منه المساويك . والمعنى حسبك فى وصف ما أُلاقيه من عذاب أننى ظمآن إلى رشفة من ريقك العذب فلا أظفر بها ، على حين يظفر بها عود الأراك .

(٤) واهًا : كلمة تلهُّف أو تعجب ، تقول : واهًا على ما فات !! أى آسفٌ عليه ، وواهًا له أو به !! أى ما أطيبه ! والغضارة : الخصب والنعمة ، والبُرْد : ثوب مخطط . والمعنى : أننى أتحسر على ما مضى من أيام وصالك حين أقبل علينا الدهر وخلع علينا من السعادة حُلَلاً كأنها مصبوغة من شبابك النضير.

وَاللَّيْلُ مَهْمَا طَالَ قَصَّرَ طُولَهُ ... هَاتِى وَقَدْ - غَفَلَ الرَّقِيبُ - وَهَاكِ (١)

وَلَطَالَمَا اعْتَلَّ النَّسِيمُ ، فَخِلْتُهُ ... شَكْوَاىَ رَقَّتْ فَاقْتَضَتْ شَكْوَاكِ (٢)

إِنْ تَأْلَفِى سِنَةَ النُّئُومِ خَلِيَّةً ... فَلَطَالَمَا نَافَرْتِ فِىَّ كَرَاكِ (٣)

أَوَ تَحْتَبِى بِالْهَجْرِ فِى نَادِى الْقِلَى ... فَلَكَمْ حَلَلْتُ إِلَى الْوِصَالِ حُبَاكِ (٤)

أَمَّا مُنَى نَفْسِى فَأَنْتِ جَمِيعهَا ... يَا لَيْتَنِى أَصْبَحْتُ بَعْضَ مُنَاكِ !! (٥)

---

(١) المعنى : مهما طال ليل الوصال فإنه قصير ، وقد طويناه فى مقارعة الأكواب ، أسقيكِ وتسقيننى الراح ، وأُناولك وأَتَناوَلُ منكِ الكئوس .

(٢) المعنى : طاب ليل اللقاء ، وصفت فيه المتعة ورق النسيم ، حتى حسبته شكوى رقيقة سَرَتْ منى إليكِ فقابلْتِ رقتها بالرقة والحنان .

(٣) المعنى : إذا كنتِ الآن هاجرة لى ، خالية من مَحَبّتى ، ناعمة بالرقاد ، فطالما مرْت عليكِ ليالٍ كابدْتِ فيها السهر ، ودافعت عن عينيك الكرى من الشوق إلىَّ والهيام بى .

(٤) احتبى بالثوب : لفّه حوله وهو جالس ضامٌ فخذيه إلى بطنه ، وحلَّ حبوته : فكّ ثوبه ونهض قائمًا ، والقِلَى : الكُرْه . والمعنى : إذا كنتِ الآن منصرفةً عنى ، كارهة لى ، فطالما جذبتُك إلى لِقَائى فَلَبَّيْتِ دعوة الوصال .

(٥) المعنى : أن جميع ما تشتهيه نفسى من الآمال يحوم حولك ، ولا أتمنى إلا أن أكون أنا بعض ما يجوس بخاطرك من الآمال .

رسالة من « الزهراء » [1]

إنِّى ذَكَرْتُكِ « بِالزَّهْرَاءِ » مُشْتَاقَا
وَالأُفْقُ طَلْقٌ ، وَمَرْأَى الأَرْضِ قَدْ رَاقَا

وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ ــ فى أَصَائِلِهِ ــ كَأَنَّهُ رَقَّ لِى ، فَاعْتَلَّ إشْفَاقَا
وَالرَّوْضُ ــ عَنْ مَائِهِ الْفِضِّىِّ ــ مُبْتَسِمٌ كَمَا شَقَقْتَ ــ عَنِ اللَّبَّاتِ ــ أَطْوَاقَا[2]
نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهَرٍ جَالَ النَّدَى فِيهِ ، حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا
كَأَنَّ أَعْيُنَهُ ــ إِذْ عَايَنَتْ أَرَقِى ــ بَكَتْ لِمَا بِى ، فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَاقَا
وَرْدٌ تَأَلَّقَ ــ فى ضَاحِى مَنَابِتِهِ ــ فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى فى الْعَيْنِ إِشْرَاقَا
سَرَى يُنَافِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عَبِقٌ وَسَنَانُ ، نَبَّهَ مِنْهُ الصُّبْحُ أَحْدَاقَا[3]
كُلٌّ يَهِيجُ لَنَا ذِكْرَى تُشَوِّقُنَا إِلَيْكِ ، لَمْ يَعْدُ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا[4]
لاَ سَكَّنَ اللهُ قَلْبًا ، عَنَّ ذِكْرُكُمُ فَلَمْ يَطِرْ بِجَنَاحِ الشَّوْقِ خَفَّاقَا[5]

---

(١) عاد الشاعر متخفيًا إلى مدينة « الزهراء » بعد فراره من « قرطبة » ، ومنها أرسل هذه القصيدة إلى حبيبته متلهفًا على لقائها وهو ينظر فى الطبيعة حوله ومباهج الربيع كأنها تشاركه شعوره .

(٢) اللَّبَّات : جمع لَبَّة ، وهى أعلى الصدر ، أو موضع القلادة منه .

(٣) النيلوفر : زهر كبير ينبت فى المياه الراكدة ، تنطبق أوراقه فى الليل وتتفتح فى النهار .

(٤) المعنى : أن الطبيعة تهيج فينا الذكريات الماضية فتتوافد وتحتشد حتى يضيق الصدر عن استيعابها .

(٥) عَنَّ : عَرَضَ .

لَوْ شَاءَ حَمْلِي نَسِيمُ الصُّبْحِ ـ حِينَ سَرَى ـ وَافَاكُمُ بِفَتًى أَضْنَاهُ مَا لاَقَى

يَوْمٌ ، كَأَيَّامِ لَذَّاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ بِتْنَا لَهَا ـ حِينَ نَامَ الدَّهْرُ ـ سُرَّاقَا

لَوْ كَانَ وَفَّى الْمُنَى ـ فِى جَمْعِنَا بِكُمْ ـ لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الأَيَّامِ أَخْلاَقَا

كَانَ التَّجَارِى بِمَحْضِ الْوُدِّ ـ مُذْ زَمَنٍ ـ
مَيْدَانَ أُنْسٍ جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلاَقَا

فَالآنَ ـ أَحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمُ ـ سَلَوْتُمُ ، وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَّاقَا !

❊ ❊ ❊

المراجـــع

١ ـ **آنخل جنثالث بالنثيا** : تاريخ الفكر الأندلسي ـ ترجمة د. حسين مؤنس ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة ـ د. ت .

٢ ـ **ابن بســام الشنـتريني** : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٧٩م .

٣ ـ **ابن بشـــكـوال** : كتاب الصلة ـ تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ـ مكتبة الخانجي ـ ط ٢ ـ ١٩٩٤م .

٤ ـ **ابن زيدون** : ديوان ابن زيدون ـ تحقيق علي عبد العظيم ـ دار نهضة مصر ـ ١٩٨٠م .

٥ ـ **ابن عذاري المراكشي** : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ تحقيق كولان وليفي بروفنسال ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٨٣م .

٦ ـ **أحمد بن محمد الـمِقَّرِيّ** : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٨٨م .

٧ ـ د. **سعيد منصور**: التجربة الإنسانية في نونية ابن زيدون ـ الدوحة ـ قطر ـ ١٩٨٣م .

٨ ـ د. **شوقي ضيف** : ابن زيدون ـ دار المعارف ـ ط ١١ ـ ١٩٨١م .

٩ ـ د. **الطاهر أحمد مكي** : دراسات أندلسية ـ دار المعارف ـ ط ٢ ـ ١٩٨٣م .

١٠ ـ **على عبد العظيم** : ابن زيدون ـ أعلام العرب ، العدد ٦٦ ـ دار الكاتب العربى ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ م .

١١ ـ د . **فوزى سعد عيسى** : النص الشعرى وآليات القراءة ـ منشأة المعارف ـ ١٩٩٧م .

١٢ ـ **كارل بروكلمان** : تاريخ الأدب العربى ـ مجموعة من المترجمين ـ دار المعارف ـ ط ٥ ـ ١٩٨٣م .

١٣ ـ **محمد عبد الله عنان** : دولة الإسلام فى الأندلس ـ مكتبة الخانجى ـ ط ٣ ـ ١٩٨٨م .

١٤ ـ **نهاد رفعة عناية** : ابن زيدون ـ المطبعة الهاشمية ـ دمشق ـ ١٩٣٩م .

